



میرا پمار

اهداءات ٢٠٠١

ربان / حمدي عبد المنعم غالي
الإسكندرية

مطبعة خان بكنه لاهور

میرا مار

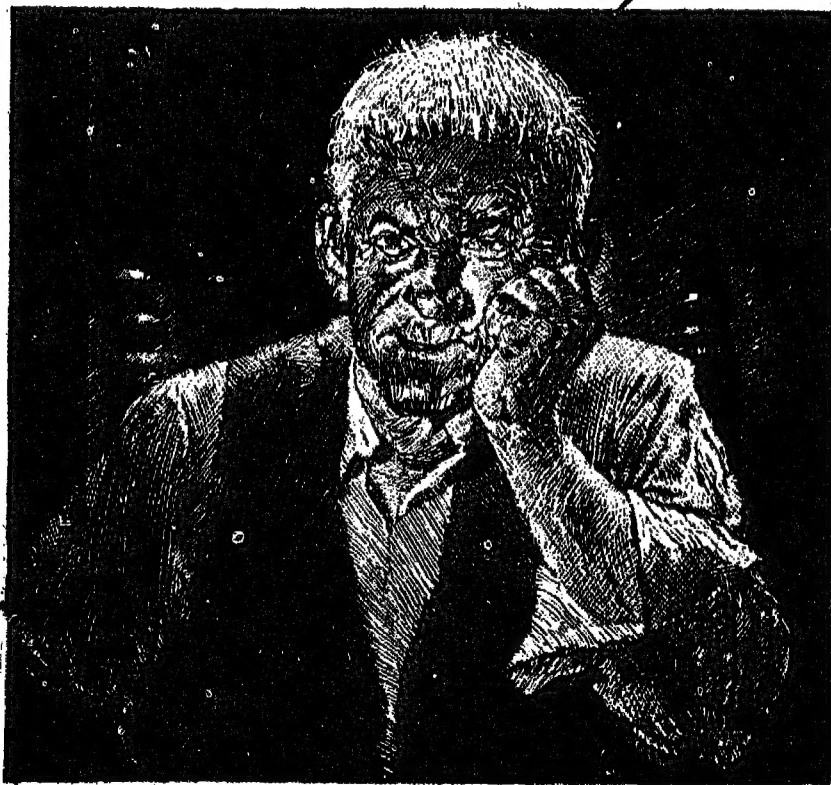
نجيب محفوظ

الحائز على جائزة الدولة التقديرية
وجائزة نوبل العالمية للأدب لعام ١٩٨٨

النشر
مكتبة مصير
٢ شارع كامل سديقي - الجمال

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السخار وشركاه

مارویتی



عامر دجدي

الإسكندرية أخيرًا .

الإسكندرية قطر الندى ، نفثة السحابة البيضاء ، مهبط الشعاع
المغسول بماء السماء ، وقلب الذكريات المبللة بالشهد والدموع .

العمارة الضخمة الشاهقة تطالعك كوجه قديم ، يستقر في ذكراتك
فأنت تعرفه ولكنه ينظر إلى لا شيء في لا مبالاة فلا يعرفك . كلحت
الجدران المقشرة من طول ما استكنت بها الرطوبة . وأطلت بجماع
بنيانها على اللسان المغروس في البحر الأبيض ، يجلل جنباته النخيل
وأشجار البلخ ، ثم يمتد حتى طرف قصي حيث تفرقع في المواسم بنادق

الصيد . والهواء المنعش القوى يكاد يقوض قامتي النحيلة المقوسة ،
ولا مقاومة جدية كالأيام الخالية .

ماريانا ، عزيزتى ماريانا ، أرجو أن تكونى بمعقلك التاريخى ،
كالظن وكالمأمول ، وإلا فعلتى وعلى دنيائى السلام . لم يبق إلا القليل ،
والدنيا تتكرر فى صورة غريبة للعين الكليلة المظلمة بحاجب أبيض
منجرد الشعر .

ها أنا أرجع إليك أخيرا يا إسكندرية .

ضغطت على جرس الشقة بالدور الرابع . فتحت شراعة الباب .
فتحت شراعة الباب من وجه ماريانا . تغيرت كثيرا يا عزيزتى . ولم
تعرفنى فى الطريقة المظلمة . أما بشرتها البيضاء الناصعة وشعرها الذهبى
فقد توهجا تحت ضوء ينتشر من نافذة بالداخل .

— بنسيون ميرامار ؟

— نعم يا فندم .

— أريد حجرة خالية .

الباب فتح . استقبلنى تمثال العذراء البرنزى . ثمة رائحة ما لعلى
أفقدتها أحيانا . وقفنا نتبادل النظر . طويلة رشيقة ، الشعر ذهبى ،
والصحة لا بأس بها ، ولكن بأعلى الظهر احديداب ، والشعر مصبوغ

— ٩ —

حتماً، واليد المعروقة وتجاويز زاويتي الفم تشي بالعجز والكبر. إنك يا عزيزي في الخامسة والستين رغم أن الروعة لم تسحب منك جميع أذيالها . ولكن هل تتذكرينى ؟

نظرت باهتمام تجارى بادئ الأمر ، ودققت النظر ، ثم اختلجت العينان الزرقاوان . ها أنت تتذكرين ، وها أنا أسترده وجودى الضائع .
— أوه .. أنت !

— مدام !

تصافحنا بحرارة ، غلبها الانفعال فقهقتها ضاحكة . كنساء الأنفوشي قهقهته . وأطاحت بالوقار بضربة واحدة .
— يا خبر أبيض ، عامر بك ، أستاذ عامر ، ها .. ها ..

جلسنا على كنية الأبوس تحت العذراء وشبحانا يتخايلان في زجاج صوان المكتب القائم للزينة .
نظرت فيما حولى وقلت :

— مدخل البنسيون هو هو لم يتغير .

فقلت محتجة ، ملوحة بيدها بفخار :

— بل تجدد وطلّى مرات ، وعندك أشياء جديدة كالنجفة والبارفان والراديو ..

— إني سعيد يا ماريانا ، الشكر لله على أنك فى صحة جيدة ..

— ١٠ —

- وأنت أيضا يا مسيو عامر ، ألمس الخشب ..
- عندى المصران الغليظ والبروستاتا ، نحمده على أى حال ..
- أتجىء بعد زوال الصيف ؟
- قلت باهتمام :
- بل جئت للإقامة ، متى تلاقينا آخر مرة ؟
- منذ .. منذ .. أقلت للإقامة ؟
- نعم يا عزيزتى ، رأيتك آخر مرة منذ حوالى عشرين عاما ..
- واختفيت طيلة ذلك العمر !
- العمل ، والهموم ..
- أراهن على أنك زرت الإسكندرية مرات ومرات فى تلك
- الأعوام ..
- أحيانا ، ولكن وطأة العمل كانت شديدة ، وأنت أدرى
- بالصحافة ..
- وأعرف أيضا جحود الرجال ..
- ماريانا يا عزيزة ، أنت أنت الإسكندرية ..
- تزوجت طبعاً ..
- كلا بعد !
- تساءلت مقهقهة :

— ١١ —

— ومتى تتم النية وتقدم ؟

قلت بنبرة لم تخل من امتعاض :

— لا زواج ، لا أبناء ، اعتزلت العمل ، انتهيت يا ماريانا ..

شجعتنى بحركة من يدها فواصلت قائلاً :

— عند ذاك نادتنى الإسكندرية ، مسقط رأسى ، ولما لم يكن لى فيها

من قريب حى فقد قصدت الصديق الباقى لى فى دنياى .

— جميل أن يجد الإنسان صديقاً يقاسمه وحدته .

— أتذكرين أيام زمان ؟

قالت بصوت مأساوى :

— ذهبت بكل جميل .

ثم فى شبه غمغمة :

— ولكن علينا أن نعيش ..

وجاء وقت الحساب والمساومة . قالت إنه لم يعد لها من مورد إلا البنسيون ، ولذلك فهى ترحب بنزلاء فصل الشتاء ولو كانوا من الطلبة المزعجين ، وفى سبيل ذلك تستعين بالسماسرة وبعض خدام الفنادق . رددت ذلك بحزن عزيز قوم ذل . واختارت لى الحجرة رقم ٦ فى الجناح البعيد عن البحر . واتفقنا على أجرة معقولة تصلح لشهور العام عدا فصل الصيف ، على أن يكون لى حق الاستمرار فى الإقامة

صيفا إذا دفعت أجرة المصيفين . تم الاتفاق على كل شيء بما فيه الفطور الإيجارى ، وأثبتت المدام أنها تستطيع فى الوقت المناسب أن تستنقذ قلبها من الذكريات لتحسن المساومة والتدبير . وسألتنى عن حقائى فأجابت بأنها فى أمانات المحطة . فقالت ضاحكة :

— لم تكن متأكدا من وجود ماريانا .

ثم واصلت بحماس :

— لتكن إقامة دائمة .

فنظرت إلى يدى التى ذكرتنى بيد مومياء فى المتحف المصرى .

* * *

لا تقل حجرى فى شيء عن الحجرات المطلة على البحر . مستوفية لحاجتها من الأثاث والمقاعد المريحة ذات الطابع القديم . ولتبق الكتب فى صندوقها إلا ما ندر مما قد أراجعه فىمكن وضعه فوق التراييزة أو التسريحة . لا يعيها شيء إلا أن جوها يسبح فى مغيب دائم لأنها تطل على منور كبير يتسلق على جدرانه سلم الخدم حيث تهر القطط ويتناجى العاملون . وزرت الحجرات كلها . الوردية والبنفسجية والسماوية وكانت جميعها خالية . فى كل أقمت صيفا أو أكثر فى زمن مضى . ورغم اختفاء المرايا القديمة والسجاجيد الفاخرة والقناديل المفضضة والفناير البلورية فما زالت مسحة أرستقراطية باهتة تعلق بالجدران

— ١٣ —

المورقة والأسقف العالية الموشاة بصور الملائكة .

قالت وهى تتنهد وقد لحت لأول مرة طاقم أسنانها :

— كان بنسيون الساده !

فقلت مواسيا :

— سبحان من له الدوام .

فعادت تقول وهى تلوى بوزها :

— أكثر النزلاء شتاء من الطلبة ، وأما فى الصيف فأستقبل كل من

هب ودب .

* * *

— عامر بك ، كن شفيعى عند دولة الباشا .

وقلت للباشا :

— يا دولة الزعيم ، ليس الرجل ذا كفاءة ممتازة ولكنه فقد ابنه فى

الجهاد وهو جدير بأن يرشح عن الدائرة .

وافق على اقتراحى أسكنه الله أعز مكان فى جنته . كان يحبنى ويتابع

مقالاتى باهتمام صادق . ومرة قال لى :

— أنت كلب الأمة الخفافك .

كان رحمه الله ينطق القاف كافا . وسمع بها بعض زملاء القدامى من

رجال الحزب الوطنى فكانوا كلما رأونى صاح صائحهم : « أهلا

بكلب الأمة .»

لكنها كانت أيام المجد والجهاد والبطولة .
كان عامر وجدى شخصا فريدا ، له فى الرجاء جانب يبرده
الأصدقاء ، وفى الخوف جانب يتجنبه الأعداء .

* * *

فى الحجرة أتذكر أو أقرأ أو أستسلم للنعاس . وفى المدخل مجال سمر
مع الراديو وماريانا . وإن شئت تنويعا فى التسلية ففى أسفل العمارة
مقهى الميرامار . من البعيد جدا أن أعثر على أحد أعرفه أو يعرفنى ،
ولا فى التريانون نفسه . ذهب الأصدقاء وذهب زمانهم . وإنى لأعرفك
يا إسكندرية الشتاء . تخلىن ميادينك وشوارعك مع المغيب فيمرح فيها
الهواء والمطر والوحشة ، وتعمر حجراتك بالمناجاة والسمر .

* * *

— ذلك العجوز الذى يخفى جسده المنحط تحت بدلة سوداء من عهد
نوح .

وقال من عينه الزمن الهازل رئيسا للتحرير :

— زمن البلاغة ولى ، هل عندك عبارة تصلح لراكب طائرة ١٢
راكب طائرة ١. أيها القره جوز المفعم شحما وغباء .. إنما خلق
القلم لأصحاب العقول والأذواق لا للمجانين العربدين من ضحايا

الملاهي والحانات .. ولكن قضى علينا طول العمر بالسير في ركاب
زملاء جدد في المهنة ، لقنوا علمهم في السيرك ثم اجتاحوا الصحافة
ليلعبوا دور البهلوانات .

جلست على الفوتيل مرتديا الروب ، استسلمت ماريانا إلى مسند
الكنبة الأبنوس تحت تمثال العذراء ، وانبعث من المحطة الأفرنجية
موسيقى راقصة . وددت أن أسمع لونا آخر ولكنى تجنبت إزعاجها .
استرخت جفونها كمن تحلم وحركت رأسها في طرب كأيام زمان .
— كنا وما زلنا أصدقاء يا عزيزتى .

— طول العمر .

— لم نتبادل العشق ولا مرة !

ضحكت ضحكة عالية وقالت :

— ذوقك بلدى ، لا تنكر ..

— عدا مرة عابرة ، هل تذكرين ؟

ضحكت طويلا ثم قالت :

— نعم جئت مرة بخواجاية فاشترطت عليك أن تكتب فى السجل

« عامر وجدى وحرمة » .

— وسبب آخر أبعدنى عنك، كنت حسناء فاخرة يحتكرك الوجهاء ..

— ١٦ —

تهلل وجهها في سعادة شاملة، ماريانا ، مهم عندي جدا أن يمتد بك
العمر بعدي ولو يوما واحد حتى لا أضطر إلى البحث عن مأوى جديد.
ماريانا إنك شاهد حي على أن التاريخ ليس وهما، من عهد الإمام إلى اليوم.

* * *

— سيدى الأستاذ ، أستودعك الله .

رمقنى فى ضجر ، وهو يضيق بى كلما رآنى . قلت :
— آن لى أن أعتزل .

قال وهو يدارى ارتياحه :

— خسارة كبيرة ولكننى أرجو لك حياة طيبة .
انتهى كل شئ .

انطوت صفحة تاريخ بلا كلمة وداع ولا حفلة تكريم ولا حتى مقال
من عصر الطائفة . أيها الأندال ، أيها اللوطيون ألا كرامة لإنسان عندكم
إن لم يكن لاعب كرة ؟

* * *

قلت وأنا أرنو إليها تحت ثمال العذراء :

— ولا هيلانة فى زمانها !

ضحكت وقالت :

— قبل أن تجيء كنت أجلس وحدى ، لا أنتظر أحدا أعرفه . مهددة
دائما بأزمة كللى .

— سلامتك ، ولكن أين أهلك ؟

وهي تتنهد :

— هاجر النساء والرجال .

ولوت بوزها المجعد ثم واصلت :

— قلت أين أذهب ؟ ، لقد ولدت هنا ، لم أر أئينا أبداً في حياتي ، ثم

إن البنسيونات الصغيرة لن تؤم على أى حال .

يعجبني الصدق في القول والإخلاص في العمل وأن تقوم المحبة بين

الناس مكان القانون . لا فض فوك . لقد أكرمك الله بتمثالين والموت .

— مصر وطنك والإسكندرية ليس كمثلها شيء .

عزف الهواء في الخارج . والظلام يهبط خلسة . قامت فأشعلت من النجفة

ثلاثة مصابيح في أسفلها مثل عنقود العنب . عادت إلى مجلسها وهي تقول :

— كنت سيدة ، سيدة بكل معنى الكلمة .

— ما زلت سيدة يا عزيزتي .

— هل تشرب كأيام زمان ؟

— كأس واحدة عند العشاء ، طعامي خفيف جدا ، وذاك سر

حيويتي رغم تقدم العمر .

آه يا مسيو عامر ، تقول إن الإسكندرية ليس كمثلها شيء ؟ ، كلا

(ميرامار)

— ١٨ —

لم تعد كما كانت على أيامنا ، الزبالة ترى الآن في طرقاتها ! .

قلت بإشفاق :

— عزيزتى ، كان لا بد أن تعود إلى أهلها .

قالت بحدة :

— ولكننا نحن الذين خلقناها .

— عزيزتى ماريانا ألا تشرين كأيام زمان ؟

— كلا ، ولا كأس واحدة ، عندى ضغط من الكلى .

ما أجهل أن نوضع فى متحف جنباً إلى جنب ، ولكن عدينى بألا
تموتى قبلى :

— مسيو عامر ، قتلت الثورة الأولى زوجى الأول ، أما الثورة الثانية

فجردتنى من مالى وأهلى ، لماذا ؟

— إنك مستورة والحمد لله ، ونحن أهلك ، والعالم يشهد أمثال هذه

الحوادث كل شروق شمس .

— يا له من عالم !

— ألا نغير المحطة الإفريقية ؟

— عدا ليلة أم كلثوم فلا محطة غيرها !

— أمرك يا عزيزتى .

— خيرنى لماذا يعذب الناس بعضهم البعض ، ولماذا يتقدم بنا العمر ؟

ضحكت دون أن أنبس .



خبرني لماذا يعذب الناس بعضهم البعض ، ولماذا يتقدم بنا العمر ؟

— ٢٠ —

أجلت البصر في الجدران المنقوش عليها تاريخها . هاك صورة
الكابتن بقبعته العالية وشاربه الغزير في البدلة العسكرية ، زوجها
الأول ، ولعله حبيبها الأول والأخير ، الذى قتل فى ثورة ١٩١٩ . فى
الجدار المقابل وفوق المكتبة صورة أمها العجوز ، كانت مدرسة . على
مرمى البصر فى الصالة فيما وراء البارفان صورة الزوج الثانى ملك
البطارخ وصاحب قصر الإبراهيمية ، أفلس ذات يوم فانتحر .

— متى فتحت البنسيون ؟

— قل متى اضطررت لفتحه من فضلك !

ثم أجابت :

— عام ١٩٢٥ .

عام مخنة وكدر ..

— ها أنا شبه سجين فى بيتى وعرائض التأيد تزف إلى الملك .

— زيف وكذب يا دولة الزعيم .

— حسبت الثورة قد طهرت النفوس من ضعفها .

— الجو سليم والحمد لله .. سأسمع دولتكم مقالة الغد .

راحت تدلك بشرة وجهها بليمونة وهى تقول :

— كنت سيدة يا مسيو عامر ، أحب الحياة الحلوة والنور والفخامة

— ٢١ —

- والأبهة والملابس والصالونات ، وكنت أهل على المدعوين كالشمس ..
 — رأيت ذلك بعيني ..
 — لكنك لم تر إلا صاحبة البنسيون .
 — كانت تهل أيضا كالشمس ..
 — وكان النزلاء من السادة ولكن لم يعزنى ذلك عن تدهورى ..
 — ما زلت سيدة بكل معنى الكلمة .
 هزت رأسها ثم سألت :
 — والأصدقاء القدامى ماذا حل بهم ؟
 — حل بهم المكتوب عليهم .
 — لماذا لم تتزوج يا مسيو عامر ؟
 — سوء الحظ ، ليتنا أنجبنا ذرية .
 — أوه .. كان كلا الزوجين عاقرا !
 يغلب على الظن أنك أنت العاقر ، إنه أمر مؤسف إذ أننا لم نوجد
 إلا لكى ننجب .

* * *

ذلك البيت الكبير الذى تحول مع الأيام إلى فندق ، يراه السائر فى
 خان جعفر كقلعة صغيرة ، وحوشه القديم الذى شق فيه طريق إلى خان
 الخليلي ، قد نقش فى قلبى هو وما يكتنفه من بيوت قديمة والكلوب
 العتيق ، صورة تذكارية لنشوة الحب المشبوب المرتطم بخيبة الأمل .

— ٢٢ —

العمامة واللحية البيضاء وقسوة الشفتين وهما تلفظان « لا » فتقضى في
تعصب أعشى على الحب الذى هبط إلى الدنيا قبل الأديان بمليون سنة .
— مولاي ، إنى أنشد القرب منكم على سنة الله ورسوله .

صمت وبيننا فنجال قهوة لم يمس ، فقلت :
— إنى صحفى ، ذو مال ، وابن شيخ كان خادما لمسجد سيدى أبى
العباس المرسى .

قال :

— رحمه الله كان من التقاة المؤمنين .

وقبض على المسبحة ثم استطرد :

— يا بنى ، كنت منا ، جاورت الأزهر زمنا .

ذاك التاريخ متى ينسى ! . قال :

— ثم طردت من الأزهر ، أنت تذكر .. ؟

— مولاي ، ذلك تاريخ قد انقضى ، لأنفه الأسباب كان يحق الطرد ،

شاب هزه الشباب فاشترك فى تحت مطرب ذات ليلة ، أو طرح بعض
أسئلة براءة ..

قال بامتعاض :

— قضى عليه قوم عقلاء بتهمة شنيعة .

— مولاي منذا يستطيع أن يقضى على إنسان بتهمة كالإلحاد ،

ولا مطلع على الفؤاد إلا الله ؟

— يستطيع ذلك من يسترشد بالله .

اللجنة . منذا يزعم أنه عرف الإيمان . قد تجلى الله للأنبياء ونحن
أحوج منهم إلى ذاك التجلى . وعندما نتحسس موضعنا في البيت الكبير
المسمى بالعالم فلن يصيبنا إلا الدوار .

* * *

لنحذر الكسل . لا بأس من تجربة المشى في الصباح المشمس .
ما أحلى أيام الدفء في البالما والبجعة . ولو وجدت نفسك وحيدا بين
أسر تعمر بالأجيال . الأب يطالع جريدة والأم تطرز رقعة والأبناء
يلعبون . لو يبتدع المخترعون للمعتزلين جهازا ييادهم الحديث
والسمر ، أو شخصا ألكترونيا يلاعبهم النرد ، أو يركب لهم عينا
جديدة تولع مرة أخرى بنبات الأرض وألوان السماء .
وقد عشنا دهرا طويلا حافلا بالأحداث والأفكار ، نوينا أكثر من
مرة أن نسجله في مذكرات — كما فعل الصديق القديم أحمد شفيق
باشا — ولكن لم تصدق النية ثم تبددت بين إمهال وإرجاء . اليوم لم يبق
من النية القديمة إلا الحسرة بعد أن وهنت اليد وضعفت الذاكرة
واضمحلت القوة . ففي ذمة الله ذكريات الأزهر ، وصحبة الشيخ على
محمود وزكريا أحمد وسيد درويش ، حزب الأمة ما أعجبنى فيه وما
نفرنى منه ، الحزب الوطنى بحماساته وحماقاته ، الوفد بثورته العالمية
الخالدة ، الخلافات الحزبية التى قوقعتنى فى حياد بارد لا معنى له ،

الإخوان الذين لم أحبهم ، الشيوعيون الذين لم أفهمهم ، الثورة ومغزاها وامتصاصها للتيارات السابقة ، غرامياتى وشارع محمد على ، موقفى العنيد من الزواج . لو قىض لذكرياتى أن تكتب لكنت عجباً حقاً .

زرت بحنان أثيوس وباستوريدس وأنطونيادس . جلست وقتاً فى بهو وندسور ويسيلى ، ملتقى الباشوات والساسة الأجانب فى الزمن القديم ، وخير مجال لالتقاط الأخبار ومتابعة الأحداث ، فلم أر إلا قلة من الأجانب شرقيين وغربيين . رجعت ولى عند الله دعاءً : دعاء بأن يمن على بحل مشكلة الإيمان ، ودعاء بالأى صيبنى بمرض يقعدنى عن الحركة فلا أجد من يأخذ بيدى .

* * *

ما أجمل هذه الصورة النابضة بالشباب . قد وضعت على المقعد ركبة الساق اليمنى وأراحت الأخرى على الأرض ، ومالت بجذعها نحو مسند المقعد ملقياً معصمها عليه ، واستدار وجهها ليواجه الكاميرا باسماء معتزاً بملاحته وقد انحسر ديكولتيه الفستان الكلاسيكى الفضفاض عن قاعدة العنق الطويل ونحر منبسط كالمرمر .

كانت قد ارتدت معطفها الأسود والإشارب الكحلى تأهباً لزيارة الطبيب ، وجلست تنتظر الوقت المناسب للذهاب . سألتها :

— أقلت إن الثورة قد جردتك من مالك ؟

فرفعت حاجبيها المزججين وقالت :

— ألم تسمع بكارثة الأسهم ؟

لعلها قرأت في عيني تساؤلا ففطنت إلى ما يدور بخلدی فقالت :
— ضاع ما ربحته أيام الحرب الثانية ، صدقنى لقد ربحته بشجاعتى
إذ أصررت على البقاء فى الإسكندرية عندما هاجر الكثيرون إلى القاهرة
والأرياف خوفا من غارات الألمان ، طليت النوافذ باللون الأزرق
وأسدلت الستائر ، ودار الرقص على ضوء الشموع ، ولن تجد من
يضاهى ضباط الإمبراطورية فى البذل والكرم .

وجدتنى وحيدا بعد ذهابها أنظر إلى عيني زوجها الأول وينظر إلى .
ترى من قتلك وبأى سلاح ؟. وكم من جيلنا قتلت قبل أن تقتل ؟. جيلنا
العتيد الذى فاق الأجيال جميعا فى غزارة ضحاياه .

الغناء الأفرنجى لا ينقطع . أقسى ما حكم الزمان به على فى عزلتى .
ماريانا أخذت حماما ساخنا عقب عودتها من عند الطبيب ، ها هى
تجلس ملفوفة فى برنس أبيض وقد عقصت شعرها المصبوغ غارسة فيه
عشرات المشابك المعدنية البيضاء . خفضت صوت الراديو إلى حد
الهمس لتبدأ هى إذاعتها وقالت :

— مسيو عامر .. لا شك أن لديك مالا وفيرا ؟

فسألتها بشيء من الحذر :

— هل عندك مشروعات ؟

— ٢٦ —

— كلا ، ولكن فى مثل عمرك — وعمرى أيضا مع الفارق
الكبير — لا يتهبذنا شىء مثل الفقر والمرض .
قلت والحذر لم يفارقنى بعد :
— لقد عشت مستورا وأرجو أن أموت مستورا .
— لا أذكر أنك كنت مسرفا قط .
ترددت قليلا ثم قلت :
— أرجو أن يكون عمر المدختر من نقودى أطول من عمرى ..
لوحى بيدها باستهانة وقالت :
— الطبيب شجعنى هذه المرة فوعده بآلا أحمل هما .
— جميل ألا نحمل هما .
— يجب أن نفرح ونلهو عندما تأتى ليلة رأس السنة .
قلت ضاحكا :
— نعم ، على قدر ما تسمح قلوبنا .
راحت تهز رأسها فى تلذذ وتقول فى مناجاة :
— يا ليلالى رأس السنة ..
فقلت منفعلا بذكرىات بعيدة :
— كم أحبك الكبراء !
— لم أعرف الحب إلا مرة واحدة ..
ثم أشارت إلى صورة الكابتن . وعادت تقول :

— قتله طالب من الطلبة الذين أخذهم اليوم !

ثم قالت بخيلاء :

— كان بنسيون السادة !.. يعمل به طاه ومرمطون وسفرجى

وغسالة وخادمان ، لا أحد يخدم به اليوم سوى غسالة أسبوعية !

— كبراء كثيرون يغبطونك على ما أنت فيه .

— أهذا عدل يا مسيو عامر ؟

— هو على أى حال طبيعى يا مدام .

اربد وجهها فضحكت متوددا وملاطفا .

* * *

﴿الرحمن * علم القرآن * خلق الإنسان * علمه البيان * الشمس

والقمر بحسبان * والنجم والشجر يسجدان * والسماء رفعها ووضع

الميزان﴾

مضيت أقرأ سورة الرحمن الحبيبة إلى قلبى مذ كنت فى الأزهر .

كنت غائصة فى مقعد كبير طارحاً قدمى على وسادة . هطل المطر بغزارة

فارتفع رنينه فوق درجات السلم المعدنى فى المنور .

﴿كل من عليها فان * ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾

ثمة أصوات تقتحم الصمت خارج الحجرة فى البنسيون . رفعت

رأسى عن الكتاب وأنصت . ضيف أم نزيل جديد ؟. صوت ماريانا

يرحب بحرارة لا تليق إلا بصديق حميم . وثمة ضحك أيضا . ثم وضحت

نبرة غليظة من صوت أجوف. ترى من القادم. الوقت بعد العصر بقليل. والمطر ينهل بشدة، والغيوم تريق في الحجرة ظلمة كالليل. ضغطت على زر الأباجورة حين لمع برق خاطف نضح به الشيش، وهزم الرعد.

﴿ يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان ﴾.

يميل إلى القصر والبدانة ، منتفخ الشدقين واللغد ، وله عينان زرقاوان رغم سمرة بشرته ، ذو طابع أرستقراطي لا تحطئه العين وينم عنه صمته المتكبر إذا صمت وحركات رأسه ويديه المتزنة المرسومة بدقة إذا تكلم . قدمته المدام باسم « لطلبة بك مرزوق » في مجلس المساء ، ثم قالت تزيدني معرفة به :

— كان وكيلا لوزارة الأوقاف ومن الأعيان الكبار .

لم يكن عندي في حاجة إلى تعريف. عرفته من بعيد بحكم مهنتي على عهد النضال السياسي والحزبي. كان من المنتمين إلى أحزاب السراى وبطبيعة الحال من أعداء الوفد. وتذكرت أيضا أنه وضع تحت الحراسة منذ عام أو أكثر وأنه جرد من موارده عدا القدر المعلوم. أما المدام فقد تبدت في أحسن أحوالها مرحا وعاطفية، نوهت مرارا ب صداقتها القديمة لطلبة بك. وبرز حماسها المتدفق عندما دعت بمحبها القديم.

وقال لي الرجل ونحن نتبادل الحديث :

— قرأت لك كثيرا فيما مضى ..

— ٢٩ —

فضحكت ضحكة ذات مغزى فضحك بدوره قائلا :

— كنت تعطينى مثلا حيا لقوة البلاغة عندما تتصدى للدفاع عن باطل !

وضحك طويلا ولكننى لم أجادله. وقالت المدام تخاطبنى بشماتة:

— طالبة بك تلميذ قديم للجزويت ، سنسمع الأغاني الأفرنجية

معا ونتركك لتتعذب وحدك ..

ثم بسطت راحتها فى ترحيب وقالت :

— جاء ليقيم معنا ..

فرحبت به فعادت تقول فى رثاء :

— كان يملك ألف فدان ، كان يلعب بالمال لعبا ..

هنا قال الرجل بامتعاض :

— انقضى عهد اللعب ..

— وأين كريمتك يا طالبة بك ؟

— فى الكويت مع زوجها المكاول .

وكنت أعلم أن الحراسة قد فرضت عليه لشبهة تهريب بيد أنه فسر

مأساته قائلا :

— خسرت أموالى جميعا ثمتا لنكتة عابرة !

فسأله :

— هل دعيت إلى تحقيق ؟

فقال بازدراء :

— ٣٠ —

— المسألة بكل بساطة أنهم كانوا فى حاجة إلى مالى ..

وكانت المرأة تنظر إليه بامعان فقالت :

— تغيرت كثيرا يا طلبة بك .

ابتسم فوه الصغير المطوق بشدقيه ثم قال :

— أصابتنى جلطة كادت تقضى على ..

ثم بشىء من العزاء :

— ولكننى أستطيع أن أشرب الويسكى فى حدود الاعتدال .

* * *

غمس الكروسان فى الشاى الممزوج باللبن ثم أكل بأناة من لم يألف الطاقم الجديد بعد . لم يكن على مائدة الإفطار سوانا وكانت الأيام القلائل الماضية قد قربت بيننا وأزالت حواجز الحذر فغلب الأناى بروح الجيل الواحد على الخلافات البالية ، وإن انطوى كل منا فى أعماقه على مزاج متفرد مناقض لصاحبه : ولكن تجىء أوقات يبرز فيها المزاج الثاوى فى الأعماق ليثير الغبار والتحديات . أجل قد سألتى بلا مناسبة :

— أتدرى ما السبب وراء المصائب التى حلت بنا ؟

فتساءلت بدهشة :

— أى مصائب تعنى ؟

— أيها الثعلب ، إنك تعرف تماما ما أعنى .

— ولكن لم تحل بى المصائب من أى نوع كان ..

— ٣١ —

رفع حاجبيه الأشيبين وقال :

— لقد اغتيلت شعبيتكم كما اغتليت أموالنا ..

— لعلك تذكر أنني خرجت من الوفد ، بل من الأحزاب جميعا ،

منذ حادث ٤ فبراير ..

— ولو .. ثمة لطمة قد أطاحت بكبرياء الجيل كله ..

فقلت زاهدا في الجدل :

— بصرف النظر عن موقفى فأنى مشوق إلى معرفة رأيك ..

قال بهدوء وازدراء :

— يوجد سبب بعيد في طرف الحبل المشدود حول أعناقنا ، شخص

لا يكاد يذكره أحد ..

— من هو ؟

— سعد زغلول !

لم أتمالك من الضحك فراح يقول بحدة :

— أجل ، منذ دأب على إثارة الإحن بين الناس ، والتطاول على

الملك ، وتملق الجماهير ، رمى فى الأرض ببذرة خبيثة ، ما زلت تنمو

وتتضخم كسرطان لا علاج له حتى قضى علينا ..

لم يكن بالبالما إلا آحاد مضى طلبة مرزوق ينظر إلى ماء النيل شبه

الساكن فى ترعة المحمودية على حين مددت ساقى واستلقيت على مسند

الكرسى كأنما أضطجع تحت شعاع الشمس النقى الدافئ . هاجرنا إلى أطراف الإسكندرية المزدحمة بالنبات والأزهار ، التى تنعم أيام الصحو بالدفء والسلام ، فأوينا إلى ركن من الجنة عامر بالبركات ..
 مهما يكن من غلو صاحبى وعصبيته فهو يستحق قدرا من الرثاء .
 عليه أن يبدأ حياة جديدة مريرة بعد الستين . إنه يغبط كريمته فى مهجرها ويرى أحلاما غريبة ، لا يطيق أن يسمع عن نظرية تبرر مأساته التاريخية . ويؤمن بأن الاعتداء على ماله إنما كان اعتداء على كون الله وسننه وحكمته .

— كدت أعدل عن الإقامة فى البنسيون عندما علمت بوجودك ..
 لم أصدق وبسألته عن السبب :
 — وقع اختياري على بنسيون ميرانار بأمل ألا أجد فيه إلا صاحبتة الخواجاية .

فسألته عما بدد سوء ظنه بى :
 — فكرت ، ثم اقتنعت بأن التاريخ لم يعرف عميلا فوق الثمانين !
 ضحكت طويلا ثم سأله :
 — ولم تخاف العملاء ؟
 — لا شئ فى الحقيقة غير أنى أروح عن نفسى أحيانا بالكلام .
 ثم واصل حديثه بعصبية :

— لم يعد لى مقام فى الريف ، وجو القاهرة يصير على إشعارى

بهوانى . عند ذاك فكرت فى عشيقتى القديمة ، وقلت لقد فقدت زوجها
فى ثورة ومالها فى الثورة الأخرى ، وإذن فسوف نعزف لحنا واحدا .
وأثنى على صحتى رغم طعونى فى السن وجعل يغربنى على مصاحبته
فى دور السينما والمقاهى الشتوية . ثم تساءل :

— لماذا عدل الله عن سياسة القوة ؟

لم أدرك مرماه فقال متبسطا فى الشرح :

— أعنى الطوفان والرياح وغيرها .

فسألته بدورى :

— أتحسب أن الطوفان قد أهلك من البشر أكثر ممن أهلكتهم قنبلة

هيروشيما ؟

فلوح بيده ساخطا وقال :

— ردد دعايات الشيوعيين أيها الثعلب !، إن أكبر خطأ فى حق

البشرية قد وقع لدى تردد أمريكا فى الاستيلاء على سلطان العالم عندما

كانت تملك وحدها القنبلة الذرية !

— خبرنى هل تجدد غرامياتك مع ماريانا ؟

ضحك عاليا وقال :

— يالها من فكرة جنونية، إني شيخ هدمه العمر والسياسة وهيمات أن

تحركنى إلا المعجزات، وأما هى فلم يبق لها من الأنوثة إلا ألوانها المجردة ..

وضحك مرة أخرى ثم قال :

(ميرامار)

— ٣٤ —

— وأنت هل نسيت تاريخك ؟ ، لقد قرأت عن فضائحك في مجلة
الكشكول ، عن جريك وراء الملاءات اللف بشارع محمد علي ..
ضحكت بلا تعليق فتساءل :
— هل رجعت أخيرا إلى الدين ؟
— وأنت ؟ .. يحيل إلى أحيانا أنك لا تؤمن بشيء ؟ ..
فقال بحق :
— كيف لا أؤمن بالله وأنا أحترق في جحيمه ؟

* * *

— لقد خلق أمثالك للجحيم ، لن يبارك الله لك في شيء ، اخرج
مطرودا من هذا المكان الطاهر ، كما طرد إبليس من رحمة الله .

* * *

دقت الساعة الكبيرة في الصلاة معلنة انتصاف الليل . تجاوزت أركان
المنور بصفير هواء قوى . أقعدنى الكسل والدفء وأنا غائص في المقعد
الكبير عن القيام إلى الفراش . وثقلت على وحدتى بعد أن انفردت بى في
الحجرة الخالية فقلت لنفسى ما جدوى الندم بعد الثمانين .
وإذا بالباب يفتح دون استئذان ويقف طلبة مرزوق على عتبة قائلا :
— معذرة ، أدركت من ضوء الحجرة أنك لم تنم ..
نظرت نحوه باستغراب . لقد شرب الليلة أكثر مما يشرب عادة .
وسألنى متهمكا وحركات رأسه تواكب نبرته :

— ٣٥ —

— أتعلم كم كان يكلفنى فى الشهر الواحد الدواء والفيتامينات
والهرمونات والروائح والدهون وخلافه ١٩
انتظرت أن يتكلم ولكنه أغمض عينيه كأن الجهد أرهقه ، ثم تراجع
فأغلق الباب ومضى .

السراقى مكتظ بالخلق ، ساحة المولد كيوم الحشر ، والصواريخ
تنطلق فى الفضاء . انشق النور وانعدم الظلام لمولد أحمد . وتهادت
الرولوزويس حتى وقفت أمام السراقى . هبط منها طلبة مرزوق فخف
لاستقباله أقوام وأقوام من السادة الدمرداشية . طريقة الرجل الذى جمع
فى قلبه بين الرسول والمندوب السامى . ولحنى صاحب الرولوزويس
فأعرض عنى فى كبرياء . وقيل ليلتها إنك جئت ثملا كما جئتنى الليلة .
ودعى سيد المطربين إلى وسط السراقى فأنشد « يا سماء ما عليك
سماء » . وفى الهزيع الأخير من الليل غنى « أحب أشوفك » فأطاح
بعقول المريدين . متى كانت تلك الليلة العجيبة ؟ على التحديد لا أذكر
ولكنها حتما سبقت وفاة الرجل الجليل وإلا ما صفا لى الطرب .

كنت أجلس فى المدخل ولا أحد معى فى البنسيون عندما دق
الجرس . فتحت الشراعة على طريقة المدام فرأيت أمامى وجهها انشرح
لمرآه صدرى . من النظرة الأولى انشرح له صدرى . وجه أسمر لفلاحة

— ٣٦ —

مطوقة الرأس والوجه بطرحة سوداء : أصيلة الملاح مؤثرة جدا بنظرة
عينها الحلوة المترقبة :

— من أنت ؟

— أنا زهرة !

قالتا ببراءة وثقة كأنما تنطق باسم علم من الأعلام . سألتها وأنا أبتسم :
— ماذا تريدان يا زهرة ؟

— الست ماريانا .

فتحت لها الباب فدخلت حاملة بقجة صغيرة . نظرت فيما حولها ثم
سألت :

— أين الست ؟

— ستجىء بعد قليل ، اجلسى ..

جلست على مقعد واضعة البقجة على حجرها فعدت إلى مجلسى فى
نشاط جديد . جعلت أنظر إليها ، إلى تكوينها القوى الرشيق ،
وملاحظتها الفائقة ، وشبابها الغض ، وأنا فى غاية من الارتياح .
واستسلمت لرغبة فى محادثتها فقلت :

— قلت إن اسمك زهرة ؟

— زهرة سلامة .

— من أين يا زهرة ؟

— من الزيادة بحيرة .

— ٣٧ —

— على ميعاد مع المدام ؟ .

— لا ..

— إذن ؟ ..

— جئت لأقابلها .

— تعرفك طبعاً ؟

— نعم .

تمليت جمالها وشبابها بارتياح لم أشعر بمثله من دهر ثم عدت أسأها :

— هل تعيشين في الإسكندرية من زمن طويل ؟

— لم أعش في الإسكندرية ولكن زرتها مرارا مع المرحوم أبى .

— وكيف عرفت المدام ؟

— كان أبى يبيعها بالخبز والزبد والسمن والدجاج ، وكنت أجيء

معه أحيانا .

— فهمت ، تنوين يا زهرة أن تحلى محل أبيك .

— لا ..

حولت عينها إلى البارفان كأنما لتتفادى من المزيد فاحترمت سرها

وازدادت لها حبا . وبكل حنان دعوت لها فى سرى أن يحفظها الله .

* * *

قلت وأنا أقبل يدها المعروقة المدبوعة « ببركة دعواتك أصبحت

رجلا ولا كل الرجال ، هلمى معى إلى القاهرة » فقالت وهى تتطلع

— ٣٨ —

نحوى بحنان : « فليزدك الله من خيره وبركاته ، أما أنا فلن أغادر البيت ،
إنه حياتى وعمرى » .

بيت نخيل ، مقشر الجدران ، تلطمه الرياح وتستقر أملاح البحر
على أحجاره ، وتلفحه روائح السمك المقدس على شاطئ الأنفوشي .
قلت : « لكنك تعيشين هنا وحدك » .
فقالت : « معى خالق الليل والنهار » .

* * *

دق الجرس فقامت زهرة ففتحت الباب . نظرت إليها المدام بدهشة
ثم هتفت :

— زهرة !.. غير معقول ..

لثمت الفتاة يدها مشرقة الوجه لخزارة الترحيب .

— جميل أو أراك ، الله يرحم والدك ، تزوجت يا زهرة .
— كلا .

— غير معقول !.

وضحكت عاليا ثم التفتت إلى قائلة :

— زهرة بنت رجل طيب يا مسيو عامر ..

ومضتا معا إلى الداخل حين جاش صدرى بحنان وأبوة .

* * *

ولما جمعنا مجلس الليل — أنا وطلبة وماريانا — قالت المدام :



زهرة بنت رجل طيب يا مسيو عامر

— ٤٠ —

- أخيرا ارتحت .
- وسكتت لحظة ثم واصلت :
- زهرة ستعمل عندي .
- اجتاحني إحساس غريب بالفرح والضييق معا ثم سألت :
- أجبأت لتعمل خادمة ؟
- نعم ، لم لا ، ستكون على أى حال فى مركز ممتاز .
- ولكن ما ..
- كانت تستأجر نصف فدان وتزرع بنفسها ، ما رأيك فى ذلك ؟
- جميل ولكن لم تركت أرضها ؟
- نظرت إلى مليا ثم قالت :
- لقد هربت .
- هربت !
- قال طلبة ساخرا :
- اعتبروها إقطاعية !
- أراد جدها أن يزوجه من عجوز مثله لتخدمه ، والباقي معروف ..
- قلت بحزن :
- حدث خطير لا تهضمه القرية .
- لا أحد لها بعد جدها إلا شقيقتها الكبرى وزوجها ..
- وإذا عرفوا أنها هنا ؟

— ٤١ —

— محتمل ولكن ماذا بهم ؟

— ألا تخشين ..

— ليست صغيرة، وما فعلت إلا أننى آويتها وأعطيت لها عملا شريفا..

ثم بإصرار :

— مسيو عامر . لن أتخلى عنها ..

لن أتخلى عن واجبى ما دام فى عرق ينبض ، ولتفعل بنا القوة ما
تشاء .

وراحت تعلمها وزهرة تتعلم بسرعة فائقة وماريانا تقول بسرور :

— البنت مدهشة يا عامر بك ، مدهشة ، ذكية وقوية ، من مرة

واحدة تعرف المطلوب ، أنا بحتى عال .

وقالت لى فى مرة أخرى :

— ما رأيك ، خمسة جنيهات غير الأكل واللبس .

أعلنت ارتياحى ثم قلت برجاء :

— لا تلبسها بطريقة عصرية !

— أتريدها أن تلبس كالفلاحات ؟

— عزيزتى ، البنت جميلة ، فكرى فى الأمر .

— أنا عيني مفتوحة دائما ، والبنت طيبة يا مسيو عامر .

هكذا خطرت زهرة في فستان من الكستور فصل على جسمها الرقيق
ليبرز محاسنه، ربما لأول مرة، بعد طول اختفاء تحت الجلباب الفضفاض
المسترسل حتى الكعبين، ومشط شعرها جيدا بعد أن غسل بالجاز ثم فرق
في وسط الدماغ ليجتمع في ضفيرتين انسابتا في امتلاء وراء الأذنين.
ورآها طالبة مرزوق فنظر إليها متفرسا ثم مال نحوى بعد ذهابها وهمس
قائلا :

— سنشاهدها في الصيف القادم في الجنفواز أو مونت كارلو .
فقلت باستياء :

— قال الله ولا فالك يا شيخ !

ثم مر بها وهو في طريقه إلى الخارج فسأها مداعبا :

— هل فيك عرق أجنى يا زهرة ؟.

شييعته بنظرة متسائلة . واضح أنها لن تستلطفه . ونظرت نحوى
فقلت لها :

— إنه يداعبك ، فاعتبرى قوله نوعا من الشاء ..

ثم قلت باسمها :

— وأنا أيضا من عشاقك يا زهرة ..

فابتسمت ابتسامة صافية فلم أشك في أنها تبادلنى مودة بمودة
وسررت بذلك جدا . وكانت المدام تدعوها — بعد انتهاء العمل —
للجلوس معنا في المدخل حول الراديو ، فكانت تختار مقعدا بعيدا بعض

— ٤٣ —

الشيء عنا وعلى كُتب من البارفان وتتابع أحاديثنا برغبة جادة في الاستطلاع والفهم ، واستأنستها بمودتي فصرنا صديقين ، وتبادلنا الكلام كثيرا في الفرص المتاحة .

وقصت علينا ذات ليلة قصتها بنفسها وهى تظن أننا نسمعها لأول مرة . ثم قالت تعليقا على بعض ظروفها :

— أراد زوج أختي أن يأكلنى فزرعت أَرْضِيْ بنفسي !

— ألم يشق عليك ذلك يا زهرة ؟

— كلا ، إني قوية بحمد الله ، لم يغلبني أحد في المعاملة ، لا في الحقل ولا في السوق .

فقال طلبة مرزوق ضاحكا :

— ولكن الرجال يهتمون بأُمُور أخرى أيضا ؟.

فقالت بتحد لطيف :

— أكون رجلا عند الضرورة ..

فآمنت على قولها بحماس . وقالت المدام :

— زهرة ليست غشيمة ، كانت تصحب أباهما في جولاته ، كان

يجبها جدا ..

فقالت بحزن :

— وكنت أحبه أكثر من عيني ، أما جدى فلا يفكر إلا في الانتفاع

من ورائى ..

— ٤٤ —

ولكن طلبة عاد إلى معاكستها قائلاً :

— لو كان باستطاعتك أن تكونى رجلاً فلم اضطررت إلى الهرب ؟ .

فقلت مدفعاً عنها :

— يا طلبة بك ، أنت أدري بجو القرى ، وقداسة الأجداد ،

والتقاليد الرهيبة ، كان عليها أن تبقى لتصير زوجة زائفة أو أن تهرب ..

رمقتنى بامتنان ، ثم قالت بأسف :

— تركت أرضى ..

وإذا بطلبة يقول :

— سيقولون إنك هربت لكيت وكيت ..

حدجته بنظرة غاضبة ، واكفهر وجهها كأنما اتخذ من ماء الفيضان

بشرة جديدة ، وفردت سبابتها والوسطى وهى تقول بخشونة :

— أغرزهما فى عين من يتقول علىّى بالباطل ..

هتفت المدام :

— زهرة ألا تفرقين بين الجد والدعابة ؟

وقلت بدورى ملاطفاً وقد أخذت بغضبيتها :

— إنه يداعبك يا زهرة ..

وملت نحوه متسائلاً :

— أين لباقتك يا عزيزى ؟

فأجابنى باستهانة :

— ٤٥ —

— موضوعة تحت الحراسة !

* * *

عينها عسلتان، وجنتاهما دسمتان موردتان ، في ذقنها غمازة . بالكاد
حفيدتى الصغرى ، أما جدتها المحتملة فقد مرت في ملح البصر : لم
يدركها حب ولا زواج . المستحيل تذكر ملامحها . بيرجوان والدرب
الأحمر وسيدى أبو السعود طبيب الجراح .

* * *

— حتى متى تبقى هنا يا سيدى ؟
كانت تبيئنى فى حجرى بقهوة العصر فأستبقها حتى أفرغ رغبة فى
حديثها .

— إلى مقيم هنا يا زهرة .

— وأسرتك ؟

قلت ضاحكا :

— لا أحد لى فى الدنيا سواك .

فضحكت من أعماق قلبها فى مرح. يدها صغيرة صلبة خشنة
الأنامل. قدماءها مفلطحان كبيرتان. أما الجسم والوجه فسيحان الله العظيم.

ومرة همست لى :

— إنه ثقيل الدم !

قلت لها مستعطفا :

— ٤٦ —

— إنه رجل كبير سيء الحظ ، وبه مرض ..
— يظن نفسه باشا وقد مضى عهد الباشوات .
وقع قولها من أذن موقعا غريبا فدار رأسى فى دائرة سحرية قطرها
قرن كامل .

— يأبون زيارة وزير الحقانية لأنه أفندى ..
— يا دولة الزعيم ، لرجل القضاء مهاتهم !
— إنى فلاح قبل كل شىء أما هم فشر اكسة ..
ثم ماضيا فى تصميم :
— اسمع ، طالما عيرونى بالغوغاء ففاخرتهم بأننى زعيم الرعاع ذوى
الجلاليب الزرق ، اسمع . لا بد أن تتم الزيارة .. وبكل احترام ..

حتى أنواع الويسكى حفظت أسماءها وهى تتبناها من بقالة الهأى
لايف . وكانت تقول لى :
— كلما طلبتها رمقتنى الأبصار وضحكت الوجوه ..
فرددت فى نفسى « ليحفظك الله » .

يا لها من ضوضاء . الأصوات ليست بالغريبة ولكنها تصرخ
محتدمة . ماذا يجرى خارج الغرفة ؟. غادرت الفراش والساعة تدق

— ٤٧ —

الخامسة مساء . تلفعت بالروب ومضيت إلى الخارج . لمحت طلبة وهو يختفى في حجرته ضاربا كفا على كف . رأيت زهرة جالسة مقطبة وشبه باكية مقوسة الظهر والمدام واقفة أمامها في غاية من الكدر . ماذا هناك ؟ قالت المدام لما رأتنى .

— زهرة سيئة الظن جدا يا عامر بك !
تشجعت زهرة بحضوري فقالت بخشونة :
— أريد أن أدلكه !

بادرتها المدام :

— إنك لا تفهمين ، إنه مريض ، كلنا نعلم ذلك ، في حاجة إلى تدليك ، كان يسافر كل سنة إلى أوروبا ، وما دمت لا تريدين فلن يرغمك أحد ..

قالت زهرة بحدة :

— لم أسمع عن ذلك من قبل ، دخلت حجرته بنية سليمة فرأيت منظر حار على وجهه شبه عار !

— كفى يا زهرة ، الرجل كبير ، أكبر من والدك ، ليس إلا سوء تفاهم ، قومي فاغسلي وجهك وانسى الأمر كله ..

جلسنا على كنبه من الآبنوس وحدنا.الهواء يصرخ في الخارج والنوافذ تصطك . غشانا صمت ثقيل مرهق فقالت المدام :

— هو الذى طلب ، وأنا لا أشك في نيته ..

— ٤٨ —

تمت بلهجة ذات معنى :

— ماريانا !

تساءلت بحدة :

— أتشك في نيته ؟

— العبث لا حدود له !

— لكنه شيخ كما تعلم ؟

— وللشيوخ عبثهم أيضا !

— قلت إنها أولى بالنقود من أخرى غريبة !

— إنها فلاح ..

ثم ذكرتها قائلا :

— وقد وضعتها في حماك !

وجاء طلبة فاتخذ مجلسه في بساطة البريء وانطلاقته . وراح يقول :

— الفلاح يعيش فلاحا ويموت فلاحا ..

فقلت بضيق :

— دعها تعيش وتموت على ما فطرها الله عليه ..

قال بامتعاض :

— قطة متوحشة ، لا يغرك منظرها في الفستان ، وجاكتة المدام

الرمادية ، إنها قطة متوحشة ..

— ٤٩ —

إني حزين من أجلك يا زهرة . أدرك الآن مدى وحدتك .
 وليس البنسيون بالمكان المناسب لك . والمدام — حاميتك — لن
 تتورع عند أول فرصة عن اتهام براءتك ..
 وتساءل طلبة مرزوق بعد الكأس الأولى قائلاً :
 — منذأ يحدثنى عن حكمة الله فى خلقه ؟
 فهتفت ماريانا مرحبة بتغيير مجرى الحديث :
 — حاسب أن تكفر يا طلبة بك !
 فأشار إلى تمثال العذراء وسأل :
 — خبرينى يا سيدى لماذا رضى الله بأن يصلب ابنه ؟
 فقالت بجد :
 — لولا ذلك لملت بنا اللعنة !
 فضحك طويلاً ثم قال :
 — ألم تحل بنا اللعنة بعد ؟
 وكان يسترق إلى النظر وأنا أتجاهله حتى لكزنى بكوعه وهو يقول :
 — أيها الثعلب ، عليك أن تصالحنى مع زهرة ..

نزىل جديد ؟

شئ فى وجهه الأسمر الواضح الملامح يشئ بأنه فلاح معتدل القامة فى
 غير امتلاء ، سمرته أميل إلى العمق ، له نظرة قوية ، فى الثلاثين من
 (ميرامار)

عمره . دعتة المدام إلى مقعد من مائدة الإفطار وهى تقول :

— مسيو سرحان البحيرى .

ثم قدمتنا إليه ، وطلبت منه أن يزيدنا تعريفا بنفسه إن شاء فقال
بصوت قوى ذى طعم ريفى متمدن :

— وكيل حسابات شركة الإسكندرية للغزل .

وعقب خروجه ضحكت المدام معلنة عن سرورها وقالت :

— نزيل مقيم أيضا بنفس الشروط !

ولم يكد يمضى أسبوع حتى جاء حسنى علام للإقامة أيضا : وهو
شاب يصغر سرحان بقليل ، ربعة أبيض اللون ، ذو بنيان متين يليق
بمصارع ، وقالت المدام إنه من أعيان طنطا .

وأخيرا جاء منصور باهى مذيع بمحطة الإسكندرية ، فى الخامسة
والعشرين ، وقد أثر فى وجهه الرقيق وقسماته الصغيرة الجميلة ، أجل
فيه شئ من الطفولة ولا أقول الأنوثة ولكن بدا من أول الأمر أنه يعيش
فى ذاته عسير الألفة .

إذن قد شمل العمران الحجرات جميعا وطارت المدام من الفرع .
وتوثب قلبى للترحيب والتعارف ولإشباع عواطفه المتعطشة . وقلت
للمدام :

— شباب مرح جميل فلعلهم لا يزهدون فى مجلسنا العجوز !

فقال بسرور :

— وليسوا طلبة على أى حال .

لم يتجاوز التعارف حدوده الرسمية ، حتى اقتربت الليلة الأولى لموسم أم كلثوم فعلمت أنهم سيسهرون معنا حول الراديو وأنها ستكون ليلة طيبة عامرة بالشباب والغناء .

أعدوا فيما بينهم عشاء من الشواء وشرابا من الويسكى.. جلسنا حول الراديو وزهرة تقوم على خدمتنا كنحلة . الليلة باردة ولكنها صامتة لم نسمع للرياح فيها صوتا وقالت زهرة : إن السماء صافية وإنك تستطيع أن تعد النجوم . ودارت الكفوس وزهرة جالسة عند البارفان تراقبنا بنظرة باسمة . عانى طلبة مزروق وحده قلقا خفيا . قال لى قبل السهر بأيام : « سينقلب البنسيون جحيما » . إنه يخاف الأغراب ، ولم يشك فى أنهم يحيطون بتاريخه وظروف حراسته علما ، إن لم يكن عن طريق الصحف فعن سبيل المذيع منصور باهى .

وكانت المدام كعادتها قد استخلصت منهم المعلومات الخليقة بأن تشبع تطفلها الأبدى :

— مسيو سرحان البحيرى من أسرة البحيرى !

لم أسمع عن الأسرة من قبل ولا بدا على طلبة مزروق نفسه أنه سمع بها .
— وقد دله صديق على البنسيون لما علم بضيقه بشقيقته القديمة ..

وحسنى علام ؟

— ٥٢ —

- مسيو حسنى من أسرة علام بطنطا ..
وخيل إلى أن طلبة يعرفها ولكنه تجنب الحديث ما أمكنه .
— وهو يملك مائة فدان ..
قالتها بزهو كأنها هى المالكة .
— لم تزد ولم تنقص فالثورة لم تمسه ..
وتهلل وجهها كأنما النجاة كانت لها .
— وقد جاء الإسكندرية لينشىء لنفسه عملا ..
هنا سأله سرحان :
— ولم لا تزرع أرضك ؟
فقال باقتضاب :
— مؤجرة .
فتفحصه سرحان بنظرة مداعبة ثم قال :
— قل إنك لم تزرع فى حياتك قيراطا ..
وضحك ثلاثهم ولكن برزت ضحكة حسنى المجلجلة .
ثم أشارت المدام إلى منصور باهى وقالت :
— أما هذا فهو شقيق صديق قديم يعتبر من أحسن ضباط البوليس
الذين عرفتهم الإسكندرية ..
خيل إلى أن أشداق طلبة قد ازدادت انتفاخا .
— وقد أشار عليه لدى نقله من الإسكندرية قريبا بالإقامة فى بنسيون ميرامار ..

— ٥٣ —

مال طلبة نحوى منتزعا فرصة انشغالهم بالشراب وهمس :

— وقعنا فى وكر للجواسيس !

فهمست له بدورى :

— لقد ولت أيام الوحشية فلا تكن سخيفا .

وإذا بالسياسة تفرقع فى السمر . وبدا سرحان متحمسا بلا حدود :

— لقد خلق الريف خلقا جديدا ..

كان صوته يتغير تبعا لامتلأه بالطعام أو خلوه منه :

— كذلك العمال ، إنى أعيش بينهم فى الشركة فتعالوا وانظروا
بأنفسكم .

وسأله منصور باهى — إنه أميلهم للصمت وقد ينفجر ضاحكا
كأنه شخص آخر ..

— أتشتغل بالسياسة بالفعل ؟

— من هيئة التحرير إلى الاتحاد القومى ، واليوم فأنا عضو بلجنة
العشرين وعضو مجلس الإدارة المنتخب عن الموظفين ..

— ألم تشتغل بالسياسة من قبل ؟

— كلا ..

وقال حسنى علام :

— إنى مقتنع تماما بالثورة . لذلك أعتبر نائرا على طبقى التى جاءت

الثورة لتصفيتها ..

— ٥٤ —

فقال منصور باهى :

— على أى حال فالثورة لم تمسك .

— ليس ذاك هو السبب ، فحتى فقراء طبقتنا قد لا يحبون الثورة ..

وأخيرا قال منصور باهى :

— إنى مقتنع تماما بأن الثورة كانت أرفق بأعدائها مما يجب !

والظاهر أن طلبة مرزوق ظن أنه إن لزم الصمت فقد يضره

الصمت ، لذلك قال :

— لقد حاق بى ضرر بالغ فأكون منافقا لو قلت إننى لم أتألم ،

ولكننى أكون أنانيا كذلك لو أنكرت أن ما عمل هو ما كان ينبغى أن

يعمل ..

عندما آويت إلى حجرى قبيل الفجر لحق بى فسألنى عن رأى فيما

قال فأجبت بصوت غريب بعد أن نزع طاقم أسنانى :

— رائع ..

— أتظن أن أحدا صدقنى ؟

— لا بهم ..

— يحسن بى أن أبحث عن مقام آخر ..

— لا تكن سخيفا .

— كلما سمعت ثناء على إجراءات قتلى تعرضت لأزمة روماتزم !

— ٥٥ —

— عليك أن تروض نفسك عليه .

— كما تفعل أنت ؟!

فقلت ضاحكا :

— إننا مختلفان منذ الأزل كما تعلم .

فمضى وهو يقول لى :

— أتمنى لك أحلاما مزعجة !

وقالت المدام ولم تكن تشارك في الشراب وقنعت من الطعام بشريحة
شواء وكوب حليب دافئ :

— عيب ثومة أنها تبدأ في وقت متأخر !

ولكن الشبان نجحوا في التغلب على آلام الانتظار . وفجأني منصور
باهي قائلا :

— إني أعرف من تاريخك الشيء الكثير .

اجتاحني فرح صياني كأنما رددت إلى فترة من فترات الشباب ،
فمضى يفسر قوله :

— راجعت الصحف القديمة مرات وأنا بصدد إعداد برنامج
إذاعي ..

تطلعت إليه مستريدا في اهتمام فقال :

— تاريخ طويل حقا ، أسهمت بقدر ملحوظ في شتى تياراته ،

حزب الأمة ، الحزب الوطنى ، الوفد ، الثورة ..
 قبضت على الفرصة بجنون ، مضيت به إلى رحلة فى رحاب التاريخ ،
 نوهت بمواقف لا يجوز أن تنسى ، استعرضنا الأحزاب . حزب الأمة ما
 له وما عليه ، والحزب الوطنى ما له وما عليه ، والوفد وحله
 للمتناقضات القديمة وقاعدته الشعبية من الطلبة والعمال والفلاحين ،
 لماذا جنحت بعد ذلك للاستقلال ، ثم لماذا أيدت الثورة ..

— ولكنك لم تهتم بالمشكلة الاجتماعية الجوهرية ؟
 فقلت ضاحكا :

— لقد نشأت عهدا بالأزهر فلم يكن غريبا أن أعمل كمأذون
 شرعى رسالته فى الحياة أن يوفق بين الشرق والغرب فى الحلال !
 — أليس غريبا أن تحمل على النقيضين معا ، أعنى الإخوان
 والشيوعيين ؟

— كلا ، كانت فترة حيرة ، ثم جاءت الثورة لتمدص خير ما فيها معا .
 — إذن فقد انتهت حيرتك ؟

أجبت بالإيجاب . ثم تذكرت حيرتى الخاصة التى لا تحمل بحزب
 أو ثورة فرددت فى نفسى الدعاء الذى لا يدرك به أحد .
 وأن الأوان فدفعت بقارى المضطرب إلى بحر الأنغام والطرب .
 نشدته أن يكون من الأعضاء المتنافرة المتناحرة جسما ينبض بالروح
 والانسجام . نشدته أن يعلمنى التوافق والتوازن فى بناء ترعاه عين الحب

والسلام . أن يصهر عذاباتي في نعمة تنعش القلب والعقل بجمال
البصيرة . أن يسكب الشهد المصفى على عناد الوجود .

* * *

ألم تسمع بالخبر العجيب ؟ .. لقد اجتمع مجلس النظار أمس بعوامة
منيرة المهديّة ..

* * *

— شبان ظرفاء وأغنياء !
هكذا جعلت تردد ماريانا . وقد زادت أعباء زهرة ولكنها حملتها
بهمة عالية حقاً . أما طلبة مرزوق فراح يقول :
— إني لا أطمئن إلى أحد منهم .
فسألته ماريانا :
— ولا حسنى علام ؟
فواصل حديثه قائلاً :

— سرحان البحيرى أشدهم خطورة ، لقد انتفع بالثورة إلى أقصى
حد ، ودعك من أسرة البحيرى التى لم يسمع بها أحد ، ثم إن كل مولود
في البحيرة فهو بحيرى ، حتى زهرة فهى زهرة البحيرى ..

ضحكت كما ضحكت المدام . ومرت بنا زهرة في طريقها إلى
الخارج لأداء واجب من واجباتها ، فرأيتها مطوقة الرأس بإشارب أزرق
ابتاعته بنقودها ، تخطر في جاكّة المدام الرمادية ، فاتنة من فاتنات

الأعشاب الندية والزهور البرية . وعدت أقول :

— منصور باهى فتى ذكى ، ما رأيك ؟ .. لا يحب الكلمات
الجوفاء ، ويخيل إلى أنه ممن يعملون فى صمت ، ثم إنه من جيل الثورة
الخالص ..

— ما الذى يدعوه ، هو أو غيره ، إلى الالتصاق بالثورة ؟
— إنك تتكلم كأنما لا يوجد بالوطن فلاحون ولا عمال ولا شبان !
— لقد سلبت البعض أموالهم وسلبت الجميع حريتهم !
فقلت ساخرا :

— إنك تتكلم عن حرية بالية ، وحتى هذه لم تحظ باحترامكم أيام
سلطونكم ..

وأنا خارج من الحمام رأيت فى الطرقة شبحين ، زهرة وسرحان
البحيرى . فى مهامسة أو مناجاة . لعله أراد أن يدارى موقفه فرفع صوته
متحدثا فى بعض الشئون التى تعد الفتاة مسئولة عنها . مضيت إلى
حجرتى كأنما لا أرى ولا أسمع ولكن اجتاحنى القلق . كيف تحافظ
زهرة على راحة بالها فى خلية غاصة بالشبان ؟ . وعندما جاءتنى بقهوة
العصر سألتها :

— أين تقضين عطلتك الأسبوعية مساء الأحد ؟
أجابت بابتهاج :

— ٥٩ —

- فى السينا .
- وحدك ؟
- مع المدام .
- قلت من قلب محب :
- فليحفظك الله ..
- ابتسمت قائلة :
- إنك تخاف على كمالو كنت طفلة .
- وإنك لطفلة يا زهرة .
- كلا ، تجدى فى وقت الشدة كالرجال .
- قربت وجهى من وجهها الجميل المحبوب وقلت :
- زهرة . هؤلاء الشبان لا يعرفون للهو حدودا ، أما عند الجد ..
- وفرقت بأصابعى ، ولكنها قالت :
- حدثنى أى عن كل شىء ..
- إنى فى الواقع أحبك وأخاف عليك .
- أنا فاهمة ، لم أعرف رجلا مثلك منذ أى ، وأنا أحبك أيضا .
- لم أسمع بكلمة الحب من قبل بهذه النعومة الرائقة . وكان من الجائز أن تخاطبنى بها عشرات الأفواه البريئة لولا تهمة ألقيت بغباء ، تهمة لا يمكن أن يقضى فيها أحد من الناس .

البرقع الأبيض .

خرجت العجوز من الباب إلى الحارة وهى تقول :

— هلمى قد كف المطر ..

تبعثها صاحبة البرقع الأبيض تمشى فى حذر على أرض زلقة متجنبه
نقرة مملوءة بماء المطر . عفى الزمان على ذكريات جمالها إلا الأثر .
تنحيت جانباً وأنا أردد فى نفسى سبحان الخلاق ذو النعم . واهتز الفؤاد
من أعماقه فقلت أتوكل على الله وخير البر عاجله .

* * *

فى المدخل وحدنا وقد جلست تحت العذراء تعكس عيناها الزرقاوان
نظرة مثقلة بالفكر . وكان المطر يهطل بلا توقف منذ الظهر والسحب
تنتابها نوبات رعدية متفجرة . قالت المدام :

— مسيو عامر ، إنى أشم رائحة غريبة !

رمقتها بحذر فقالت باستياء :

— زهرة !

ثم بعد وقفة قصيرة :

— وسرحان البحرى !

انقبض صدرى ولكننى تساءلت بسداجة :

— ماذا تعنين ؟

— أنت تفهم تماما ما أعنى ..

— ولكن الفتاة ..

— قلبى لا يخوننى فى هذه الأمور !

— البنت طيبة وشريفة يا عزيزتى ماريانا .

— مهما يكن من أمرها فإنى لا أحب أن يلعب أحد من وراء

ظهري !

إما أن تبقى زهرة شريفة وإما أن تعمل لحسابك . إني أفهمك تماما

أيتها العجوز .

* * *

حلمت — وأنا مستغرق فى القيلولة — بالمظاهرة الدامية التى اقتحم الإنجليز على أثرها ساحة الأزهر ، وفتحت عيني وأصوات المتظاهرين وطلقات الرصاص تدوى فى رأسى . كلا إنها أصوات من نوع آخر تجتاح البنسيون خارج حجرتى . ارتديت الروب وغادرت الحجرة وأنا من الانزعاج فى نهاية . وجدت الجميع قد سبقونى إلى المدخل . البعض فى حال استطلاع مثلى أما سرحان البحيرى فكان نائرا متسخطا وهو يسوى الكرافة وياقة القميص ، كذلك زهرة كانت مصفرة الوجه من الغضب وقد تمزقت طاقة فستانها وراح صدرها يعلو وينخفض ، على حين مضى حسنى علام إلى الخارج بالروب آخذا معه امرأة غريبة وهى تصرخ وتسب وقد بصقت فى وجه سرحان البحيرى قبل أن يغيبها الباب . وصاحت المدام :

— ٦٢ —

— لا يجوز هذا فى بنسيون محترم ..
وجعلت تردد بحدة « لا .. لا .. لا » .
ثم خلا المدخل إلا من ثلاثتنا أنا وهى وطلبة مرزوق . سألت ولما أفق
من النوم تماما :

— ماذا حدث ؟
فأجابنى طلبة مرزوق :
— لم أر أكثر مما رأيت إلا القليل ..
وذهبت المدام إلى حجرة سرحان للاستماع فيما بدا أما طلبة فواصل
الحديث قائلا :

— يبدو أن صاحبنا البحيرى دون جوان عتيد !
— ما الذى حملك على هذا الظن ؟
— ألم تر إلى المرأة وهى تبصق عليه ؟
— ولكن من المرأة الغريبة ؟
— امرأة ، أى امرأة !
ثم وهو يضحك :
— امرأة جاءت تسعى وراء رجلها الهاجر !
وجاءت زهرة وهى ما زالت منفعة فمضت تقول دون سؤال من
أحد :

— فتحت الباب للأستاذ سرحان وإذا بامرأة تتبعه وهو لا يدرى ثم

— ٦٣ —

اشتبكاً في عراقك حام .

ورجعت المدام فقالت وهى واقفة :

— الفتاة كانت خطيبته ، أو هذا ما فهمته ..

وضح كل شئ فيما أعتقد غير أن طلبة مرزوق سأل بنجيث :

— وما دخل زهرة في الموضوع ؟

فأجابت زهرة :

— أردت أن أخلص بينهما فتحولت إلى ثم كان ما كان !

فقال الرجل :

— إنك ملاكمة جبارة يا زهرة !

فقلت برجاء :

— فلنعتبر الموضوع منتهياً من فضلكم ..

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طسم * تلك آيات الكتاب المين * نتلو عليك من نبأ موسى
وفرعون بالحق لقوم يؤمنون * إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها
شيعة يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم إنه كان من
المفسدين * ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة
ونجعلهم الوارثين * ﴾

سمعت يدا تنقر على الباب مستأذنة في الدخول . دخلت المدام باسمه

— ٦٤ —

ثم جلست أمامي على مقعد بلا ظهر أطرح عليه ساق أحيانا . ثمة زوبعة
كانت تعوى في المنور وأنا مدثر بالروب ، والحجرة نعسانة في جوها شبه
المظلم الذى لا يدل على وقت . قالت وهى تغالب ضحكة :

— إليك نبأ عجيبا ..

أغلقت الكتاب ووضعت على الكوميدينو وأنا أغمغم :

— ليكن سارا يا عزيزتى ..

— زهرة قررت أن تتعلم ..

نظرت إليها ببلاهة ولم أفهم شيئا .

— حقا قررت أن تتعلم ، قالت لى إنها ستغيب ساعة كل يوم لتتلقى
درسا ..

قلت :

— هذا مذهل حقا ..

— عندنا فى العمارة بالدور الخامس أسرة فيها ابنة مدرسة اتفقت معها ..

— أكرر أنه قرار مذهل حقا !

— من جانبى لم أعارضها وإن أشفقت على أجرتها التى ستستولى
عليها المدرسة ..

— جميل منك هذا يا مدام ولكنى مذهول بكل معنى الكلمة !

ولما جاءتنى زهرة بقهوة العصر قلت لها :

— تخفين عنى أسرارك يا مأكرة !



الفتاة كانت بخطيبته ، أو هذا ما فهمته

(ميرامار)

— ٦٦ —

قالت بحياء :

لا أسرار تخفى عليك .

— وقرارك عن التعليم ؟ .. خبريني كيف فكرت في ذلك ؟

— كل البنات تتعلم ، إنهن يملأن الشوارع ..

— ولكنك لم تفكرى في ذلك من قبل ..

ضحكت بسرور فقلت :

— إنك قلت لنفسك إنك أجمل منهن فلم يتعلمن ولا تتعلمين .. هه؟

جعلت تنظر إليّ بابتهاج دون أن تنبس فقلت :

— ولكن ليس ذاك بكل شيء ..

— ماذا هناك أيضا ؟

ترددت لحظة ثم قلت :

— هناك صاحبنا سرحان البحيرى ..

تورد وجهها وغضبت البصر فقلت بإشفاق :

— أما التعليم ففكرة مدهشة وأما سرحان ..

ترددت في الإفصاح فتساءلت :

— ماله ؟

— هؤلاء الشبان طموحون !

قالت بامتعاض :

— كلنا أبناء حواء وآدم ..

— ٦٧ —

— هذا حق ولكن ..

— الدنيا تغيرت ، أليس كذلك ؟

— الدنيا تغيرت ولكنهم لم يتغيروا بعد ..

امتلات نظرتها بالتفكير وهي تقول :

— بعد الكتابة والقراءة سأتعلم مهنة كالخياطة .

خفت إن تكلمت أكثر أن أجرح مشاعرها فساتها :

— هل يجبك حقاً ؟

فأحنت رأسها بالإيجاب فقلت :

— ليحفظك الله ويسعدك .

ورحت أساعدها من حين لآخر وهي تدق باب المجهول ، عالم الكلمات والأعداد . وعلم الجميع بقرارها وناقشوه طويلاً ولكن لم يسخر منها أحد . على الأقل أمامها . كان الجميع يميلون إليها فيما أعتقد . كل على طريقته . وتابع طلبة مرزوق القضية فلم يخف عليه شيء من أسرارها ، قم قال لي :

— ما هو الحل السعيد لمشكلة زهرة ؟ .. أن ينزل عندنا يوماً منتج

سينائي . ما رأيك ؟

فلعنت رأيه .

وذات أصيل ذهبت كالعادة إلى مجلسي بالمدخل فرأيت زهرة جالسة

إلى جانب فتاة غريبة على الكنبه . من لحة أدركت أنها المدرسة . فتاة ريفية وجميلة . وقد تكرمتم بالحضور إليها بسبب وجود زوار في شقتها . وكالعادة كانت المدام قد استجوبتها وعرفت عنها بعض ما تتطلع إليه فأخبرت بأنها تقيم مع والديها وأن لها أخا يعمل في السعودية . وتكرر حضور المدرسة للبنسيون ، وكانت تثني على اجتهاد تلميذتها . ولاحظت مرة — وزهرة قادمة بقهوة العصر — أنها متجهمة فسألتها عن الصحة فأجابتنى بفتور :

— كالبلغل !

— والدروس ؟

— لا شكوى من هذه الناحية .

فقلت بقلق :

— لم يبق إلا صديقنا البحيري !

وصمتنا بعض الوقت كأنما لنصغى إلى صوت المطر المنهمر ، ثم

قلت :

— لا أطيق أن أراك متألة .

فقلت بامتنان :

— إني أصدقك .

— ماذا حدث ؟

— الحظ يعاندني .

— ٦٩ —

— قلت لك من أول يوم ..

— ليس الأمر بالسهولة التي تتصورها !

ثم نظرت إلى بكآبة وقالت بانفعال :

— ما العمل ؟ ، إني أحبه ، ما العمل ؟

— هل تبين لك كذبه ؟

— كلا ، إنه يحبني أيضا ، ولكنه يتكلم دائما عن العقبات .

— لكن الرجل إذا أحب .

فقالت بإصرار :

— إنه يحبني ولكنه دائما يتكلم عن العقبات .

فقلت بحنان :

— ولكن ما ذنبك أنت ؟ . يجب أن تعرفي لنفسك طريقا .

فمضت وهي تقول :

— ما قيمة أن أعرف ما يجب عمله ما دمت لا أستطيعه !

— يا . سعادة الباشا كيف هان عليك .

فقاطعني قائلا :

— كان عليّ أن أختار بين أمرين ، فإما الانتفاع ببنك التسليف

الزراعي مع إعلان خروجي على الوفد وإما الخراب .

— ولكن الكثيرين فضلوا الخراب !

— ٧٠ —

فصاح غاضبا :

— صه .. إنك لا تملك قيراطا ولا ابن لك ولا بنت ، ولقد ضربت
واعتقلت في قشلاق قصر النيل ، ولكن ابنتى أعز عليّ من الدنيا
والآخرة !

* * *

فقالت لى المدام هامية :

— تعال معى ، أهل زهرة حضروا .

مضيت معها إلى المدخل فرأيت شقيقة زهرة وزوجها جالسين
والفتاة واقفة في وسط المكان تنظر إليهما فى صلابة وعناد . وكان الرجل
يقول :

— حسن أن تذهبي إلى المدام ولكن عار أن تهربي .

وقالت أختها :

— فضحتنا يا زهرة فى الزيادة كلها .

فقالت زهرة بغضب وحدة :

— أنا حرة ولا شأن لأحد بى .

— لو كان جددك يستطيع السفر !

— لا أحد لى بعد أبى .

— يا للعب .. هل كفر لأنه أراد أن يزوجك من رجل مستور ؟

— أراد أن يبيعنى .

— ٧١ —

— الله يسامحك .. قومي معنا ..

— لن أرجع ولو رجع الأموات .

وهم زوج أختها بالكلام ولكنها بادرته :

— لا شأن لك بي !

وأشارت إلى المدام قائلة :

— إني أعمل هنا كما يعمل الشرفاء وأعيش من عرق جبینی !

خيل إلى أنهما يودان أن يصارحاها برأيهما في المدام والبنسيون وتمثال

العدراء ولكنهما لا يستطيعان . وقالت المدام :

— زهرة ابنة رجل كنت أحترمه ، إني أعاملها كابنة ، فأهلا بها إن

أرادت البقاء .

ونظرت المدام إلى كائنا تستحثني على الكلام فقلت :

— فكرى يا زهرة واختارى !

لكنها قالت بإصرار :

— لن أرجع ولو رجع الأموات !

انتهت الرحلة بالفشل فمضى الرجل بزوجته وهو يقول لزهرة :

— القتل لك حق وعدل .

وجعلنا نناقش الموضوع ، ونقول ونعيد ، حتى قالت لى زهرة :

— خبرنى عن رأيك صراحة ؟

فقلت :

— ٧٢ —

— أتمنى أن ترجعنى إلى قرينك !

— أرجع للهوان ؟

— قلت « أتمنى » يا زهرة .. أقصد أن ترجعنى وأن يكون فى الرجوع سعادتك .

— إني أحب الأرض والقرية ولكنى لا أحب الشقاء !

وانتهزت فرصة ذهاب المدام إلى بعض شأنها فقالت بحزن :

— هنا الحب والتعليم والنظافة والأمل !

أدركت أشجانها . لقد هاجرت مثلها مع والدى من القرية .
وأحببت القرية مثلها ولكنى ضقت بالعيش فيها . وعلمت نفسى كما تود
أن تفعل . ورميت مثلها بتهمة باطلة فقال أقوام إني أستحق القتل .
ومثلها فتننى الحب والتعليم والنظافة والأمل .

الله أسأل أن يجعل حظك أسعد من حظى يا زهرة .

دنا الخريف من نهايته ولكن جو الإسكندرية يسير على هواه . وقد
أنعمت بركاته علينا بصباح مضىء دافئ فابتهج ميدان الرمل تحت أشعة
الشمس الهابطة من سماء صافية الزرقة . ابتسم إلى محمود أبو العباس بائع
الجرائد وأنا أقف أمام معرضه الملون بأغلفة المجلات والكتب ، ابتسم
وقال لى :

— سعادة البك ؟

— ٧٣ —

ظننت أن ثمة خطأ في الحساب . نظرت إليه متسائلا وهو قائم أمامي
بجسمه الفارع فقال :

— سعادتك تقيم في بنسيون ميرامار ؟.

أجبت بهزة من رأسى فقال :

— لا مؤاخذة ، توجد في البنسيون بنت اسمها زهرة ؟.

أجبت بانتباه مفاجئ :

— نعم .

— أين أهلها ؟.

— لكن لماذا تسأل ؟.

— لا مؤاخذة ، أريد أن أخطبها .

فكرت قليلا ثم قلت :

— أهلها في الريف وأظنها على خلاف معهم ، هل فاتحتها فى

الأمر ؟.

— إنها تجيء أحيانا لشراء الجرائد ولكنها لا تشجعنى على الكلام .

وزار المدام مساء اليوم نفسه ليطلب يد زهرة . وخاطبت المدام

زهرة فى الأمر بعد ذهابه . ولكنها رفضته بلا تردد ولا تفكير . ولما

أعادت على مسمعنا — أنا وطلبة — الحكاية قال الرجل :

— لقد أفسدتها يا ماريانا ، نظفتها ولبستها ملابسك ، وهاهى تختلط

بالشبان الممتازين فتلعب بعقولها الأحلام ، وليس لذلك كله إلا نهاية

محتومة واحدة !.

وفي خلوتنا اليومية — عندما جاءتنى بقهوة العصر — تحدثنا في الموضوع . قلت لها :

— كان يجب أن تفكرى فى الأمر .

فقلت محتجة :

— ولكنك تعرف كل شئ !.

— لا ضرر ألبتة من التفكير والمشاورة .

فقلت معاتبة :

— إنك ترائى شيئا حقيرا لا يجوز له أن ينظر إلى فوق !

فلوحت بيدى معترضا وقلت :

— المسألة أننى أراه زوجا كفتا ، هذا كل ما هناك .

— سأعود معه إلى مثل حياة القرية التى هربت منها !.

لم أرتح إلى حجتها فواصلت حديثها قائلة :

— ومرة سمعته يتكلم مع صاحب له وهو لا يرانى فيقول له إن النساء

تختلف فى الألوان ولكنها تتفق على حقيقة واحدة ، فكل امرأة حيوان

لطيف بلا عقل ولا دين ، والوسيلة الوحيدة التى تجعل منهن حيوانات

أليفة هى الخذاء !.

نظرت إلى كالمثحدة ثم تساءلت :

— أمن العيب أن أحب لنفسى حياة كريمة ؟.

— ٧٥ —

لم أجد ما أقوله . ورغم تظاهري بالأسف فإنني شعرت بإعجاب بها
لا يحد . لن أضايقك بنصائح العجائز . لقد كان سعد زغلول يستمع إلى
نصائح الشيوخ ولكنه اتبع غالبا آراء الشباب . ليحفظك الله يا زهرة .

— أحداث هامة تقع من حولك وأنت لا تدري أيها العجوز !
قال طلبة مرزوق ذلك وهو يتسم ابتسامة خبيثة . كنا نجلس في
المدخل وحدنا ولا أنيس لنا إلا صوت هطول المطر . سألته وأنا أتوقع
أنباء سوء :

— ماذا هناك ؟ .

— دون جوان البحيرة يدبر انقلابا في الخفاء .
همنى الأمر لصلته بزهرة فسألتها عما يعنى فقال :
— غير الهدف القديم ، وهو يسدد الآن بإحكام نحو هدف جديد .
— تكلم بلا تلذذ بالمصائب .

— حسن ، جاء دور الأستاذة ! .

— المدرسة ؟

— بالضبط ، لمحت نظرت متبادلة وأنا كما تعلم لى خبرة قديمة بهذه
اللغة .

— يا لك من رجل تتجسد له أفكاره الشريرة فى صورة حقائق ..
قال وهو يسخر ضاحكا ، وشامتا :

— ٧٦ —

— بابا عامر .. أدعوك إلى متابعة ألطف دراما في ميزامار !
عزمت على ألا أصدقها ولكن كدر صفوى القلق . وإذا بحسنى علام
يحدثنا فى نفس اليوم عن معركة دارت بين سرحان البحيرى ومحمود أبو
العباس بائع الجرائد فى ميدان الرمل . خمنت ما وراء المعركة من أسباب
ولكن تخيل تطوراتها كان فوق المستطاع . وقال حسنى :
— تبادلوا الضرب حتى خلص الناس بينهما .
فسأله طلبة مرزوق :
— هل شهدتهما وهما يتضاربان ؟ .
— كلا ، علمت بما كان بعد وقوعه بفترة وجيزة .
وتساءلت المدام بإشفاق :
— وهل وصل الأمر إلى القسم ؟
— كلا ، انتهى بسيل من السباب والوعيد .
ولم يشر سرحان إلى الواقعة فتجنبا ذكرها . ورجعت أفكر فيما قال
طلبة عن سرحان والمدرسة فاعترانى غم ونكد .

الوفاء عند الملاح صدف أسعفينى يا دموع العين
واستعدناها مرات ومرات بالتصفيق والهتاف فراح يغنى جنى مطلع
الفجر . كنت ليلتها مكتظا بالشباب والقوة والطعام والخمر . والقلب
يعانى وحده أسرار الشجن .

حلمت بوفاة أوى .

كنت مستغرقا فى النوم فى الهزيع الأخير من الليل . رأيتهم وهم يحملونه من رواق مسجد أوى العباس حيث أذكرته الوفاة ثم يمضون به إلى البيت . بكيت . ودوى فى أذنى صوات أوى . ومضى يدوى حتى فتحت عىنى .

يا إلهى ماذا يحدث فى الخارج ؟ . كلمرة السابقة ؟ . لقد انقلب بنسيون ميرامار إلى ميدان قتال . ولكن عندما غادرت حجرى كان كل شىء قد انتهى . ولحنتى ماريانا فأقبلت نحوى كالمستغيثة فدخلنا الحجرة وهى تهتف :

— لا .. لا .. فليذهبوا جميعا إلى الجحيم .

نظرت إليها بعينى الثقلتين بالنوم فقصت علىّ القصة الجديدة . استيقظت على صوت عراك ، غادرت حجرتها فوجدت سرحان البحرى وحسنى علام وهما يتضاربان .

— حسننى علام ؟!

— نعم ، لم لا ، يجب أن يأخذ كل نصيبه من الجنون !

فسألتها بامتعاض :

— ولكن ما السبب ؟.

— آه ، فلنرجع خطوة إلى الوراء ، إلى حادثة لم أشهدها لأنى كنت

مثلكم مستغرقا فى النوم .

— وهى ؟ .

— قالت زهرة إن حسنى علام رجع من الخارج سكران فحاول أن ..

— لا .. !

— إني أصدقها يا مسيو عامر .

— وأنا أيضا ، ولكن حسنى لم يلاحظ عليه أنه ..

— لا يمكن أن نلاحظ كل شيء . وقد استيقظ سرحان فى الوقت

المناسب فكان ما كان .

— يا للأسف ! .

مسحت على عنقها كأنما لتزيل عنه الألم الذى ألم بأوتار صوتها من

الزرقع ، ورجعت تقول :

— لا .: فليذهبوا إلى الجحيم .

فقلت بامتعاض :

— على الأقل يجب أن يذهب حسنى علام .

لم تعلق على قولى ، بل ولم تتحمس له ، ثم غادرت الحجرة متجهمة .

ولما جاءتنى زهرة عصر اليوم التالى تبادلنا نظرات ذات معنى . غمغمت :

— أسفت جدا يا زهرة .

فقالت بسخط :

— رجال بلا شهامة .

— للحق إن المكان لا يليق بك .

— بوسعى دائما أن أدافع عن نفسى ، وقد فعلت .
 — ولكن ليست هذه بالحياة المطمئنة التى ترجى لبنت طيبة مثلك .
 فقالت بعناد :
 — يوجد أرذال فى كل مكان ، حتى فى القرية !

* * *

غادرت البنسيون عقب أيام حبست فيها داخله لشدة البرد وثورة
 الرياح وانهلال المطر . كانت أياما فظيعة فانطوينا على أنفسنا فى
 الحجرات ، ولكن لم يكف الجوع عن مهاجمتنا فى قواقعنا ، لطمت المياه
 النوافذ ، وزلزلت الجدران بصواعق الرعد ، ووض البرق كالنذر ،
 وصرخت الرياح كعزيف الجان .

ولما غادرت البنسيون استقبلنى الوجه الآخر للإسكندرية ، الذى
 أفرخ غضبه . وثاب إلى وداعته ، تلقيت الشعاع الذهبى المغسول
 بامتنان ، نظرت إلى الأمواج وهى تتتابع فى براءة ، على حين نقشت
 السماء بسحائب صغيرة متهافئة كالأنفاس المترددة . جلست فى
 التريانون لأشرب القهوة باللبن . كما كنت أجلس فى الأيام الخالية مع
 الغرابلى باشا والشيخ جاويش ، ومدام لبراسكا الأفرنجية الوحيدة التى
 جربتها وسط طوفان من الملائات اللف ! . جلس معى طلبة مرزوق
 بعض الوقت ثم انصرف إلى بهو وندسور لمقابلة صديق قديم . وإذا
 بسر حان البحيرى يقبل نحوى فيسلم ويجلس ثم يقول :

— ٨٠ —

— فرصة سعيدة . دعنى أودعك فقد لا ألقاك وأنا أغادر
البنسيون !.

سألته بدهشة :

— هل عزمت على الرحيل ؟.

فأجاب بصوته العريض :

— نعم ، انتهت الاقامة ، ولو ذهبت دون أن أودعك لأسف على
ذلك طيلة العمر !.

شكرت له رفته ، ولكنى وجدت أسئلة تلح على ، غير أنه لم يهينى
فرصة لمزيد من الكلام إذ يلوح بيده لشخص قادم ثم صافحنى وذهب .
وسألت نفسى فى قلق وكآبة : ماذا عن زهرة ؟.

* * *

قبض بشدة على قضبان قفص الاتهام وهو يستمع إلى النطق بالحكم
ثم صاح بأعلى صوته فى المحكمة :

— يا فرحتك فى يا دنف ، يا فرحتك فى يا نعيمة يا ضباطى !

* * *

ولما رجعت إلى البنسيون وجدت المدام وطلبة مرزوق وزهرة
مجمعين فى المدخل ، مغلفين بكآبة أبلغ فى إفصاحها عن أى تفجع أو
ندب !. جلست صامتا وقد وضع لى ما وددت أن أسأل الآخر عنه .
قالت المدام :

— تكشف أخيرا ذاك السرحان عن حقيقته .
تمت :

— قابلنى منذ ساعات فى التريانون فأخبرنى بأنه سيفادر البنسيون !
— الحق أنى طردته !

ثم وهى تشير نحو زهرة :
— هاجمها بلا حياء ، ثم أعلن بأنه ذاهب ليتزوج من المدرسة !
نظرت إلى طلبة فنظر إلى وقال ساخرا :
— أخيرا استقر رأيه على الزواج !
وقالت المدام :

— لم يرتح له قلبى أبدا ، من أول نظرة فهمته ، شرير لا خلاق له !
ثم واصلت حديثها :

— أراد مسيو منصور باهى أن يياقشه وإذا بمعركة جديدة تنشب
فجأة، عند ذاك صرخت فى وجهه أن يخرج إلى غير رجعة!
نظرت إلى زهرة بإشفاق. أيقنت أن اللعبة قد انتهت، وأن الوغد قد
ذهب بلا جزاء. وغضبت غضبة كغضبات الأيام المريعة ثم قلت لزهرة:
— إنه وغد لا يستحق أن تأسفى عليه !

ولما خلوت إلى طلبة قلت له :
— ليتها تقبل الزواج من محمود أبو العباس !
فقال لى بلهجة من يوقظ محدثه من غفلة :

— يا رجل ، أى محمود !، ألم تدرك بعد أنها فقدت الشيء الذى لا يعوض ؟

قطبت محتجا ، وقد أخذت فى الوقت نفسه ، فقال ساخرا :

— أين عقلك أيها العجوز ؟.. وأين فطنتك ؟

— ليست زهرة كالآخرات .

— الله يرحمك .

وبقدر ما حنقت عليه بقدر ما اجتاحتني الشك . وقلت لنفسي بحزن عميق : يا للخسارة !.

وعاد طلبة يقول :

— المدام أول من نهى ولكنى لم أكن فى حاجة إلى تنبيه !

— امرأة سوء !

— إنها كما تعلم على استعداد دائما لحمايتها أو لاستغلالها .. فقلت بغیظ :

— لا هذا ولا ذاك ، أقسم على ذلك .

وجاء لقاء العصر حزينا مؤثرا . رجتنى ألا أذكرها بنصائحى القديمة

وآلا ألوم أو أعتب . تيرأت من ذلك كله وقلت إن عليها أن تواجه مستقبلها بشجاعة هى جديرة بها .

— ترى هل يفتر حماسك للتعليم ؟

فقالت بتصميم وبلا أدنى ابتهاج :

— ٨٣ —

— سأجد مدرسة أخرى !

فهمت :

— وإن احتجت إلى أى مساعدة ..

مالت نحوى حتى لثمت منكبى ثم عضت على شفتها لتمنع الدموع .
مددت يدي المعروقة المدبوغة حتى مسحت بخنان شعرها الأسود
وتمتت :

— ليحفظك الله يا زهرة .

* * *

لزمت حجرتي تلك الليلة مذعنا لإحساس شامل بالإعياء . وأقعدني
التعب بضعة أيام آخر . وجعلت المدام تحثني على مقاومة الضعف
لأشهد ليلة رأس السنة الجديدة . وفي سياق ذلك سألتني :
— نقضيتها في المونسنيير كما يقترح طلبة بك أم نقضيتها هنا ؟

غمغمت في فتور :

— هنا أفضل يا عزيزتي .

كم احتفلت بها في صولت وجروني وألف ليلة وحديقة لبتون . وقد
مرت بي عاما وأنا معتقل في سجن القلعة الحربي .

* * *

وفي صباح اليوم الثالث لا عتكافي اقتحمت المدام غرفتي في غاية من
الانزعاج ثم قالت لاهثة :

— ٨٤ —

— أما سمعت بالخبر ؟

ثم وهى تغوص فى المقعد الكبير :

— قتل سرحان البحيرى !

هتفت :

— هه ؟!

— وجد قتيلًا فى طريق البالما !

ولحق بها طلبة مرزوق قابضا بعصية على الجريدة وهو يقول :

— خبر مزعج جدا ، وقد يجبر علينا متاعب لم تكن فى الحسبان !.

وجعلنا نتبادل النظر والرأى دون جدوى . استعرضنا كافة

الاحتمالات ، فكرنا فى خطيئته الأولى ، حسنى علام ، منصور باهى ،

محمود أبو العباس ، حتى قالت المدام :

— قد يكون القاتل شخصا آخر لا يخطر لنا ببال .

فقلت :

— لم لا ، نحن لا نكاد نعرف عن الشاب شيئا ، لا عن حياته ولا

علاقاته ولا ظروفه ..

فقالت المدام بقلق :

— كم أتمنى أن يكتشفوا القاتل عاجلا وأن يكون بعيدا عنا كل

البعد ، وألا أرى وجه رجل من البوليس ..

فأيدها طلبة مرزوق قائلا :



ليحفظك الله يا زهرة

— ٨٦ —

— كم أتمنى ذلك أيضا !

وسألت عن زهرة فتنهدت المدام قائلة :

— صعبت المسكينة ، صعبت بكل معنى الكلمة ..

قلت بحزن :

— ألا يمكن أو أراها ؟

— إنها منهارة تماما في حجرتها وقد أغلقت الباب .

وعدنا نتبادل الرأى والنظر دون جدوى .

أخيرا أغمضت عيني فتردد في خاطرى :

﴿ كل من عليها فان * ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام * فبأى

آلاء ربكما تكذبان ﴾

Trina



هسنى علام

فريكيكو .. لا تلمنى !

وجه البحر أسود محتقن بزرقة . يتميز غيظا . يكظم غيظه . تتلاطم
أمواجه فى اختناق . يغلى بغضب أهدى لا متنفس له .
ثورة . لم لا . كى تؤدبكم وتفقركم وتغرغ أنوفكم فى التراب . يا
سلالة الجوارى . إنى منكم وهو قضاء لا حيلة لى فيه . وقد عرفتنى
ذات العين الزرقاء بقولها « غير مثقف ، والمائة الفدان على كف
عفريت » . وقبعت تنتظر ثورا آخر .

الكورنيش لا يرى من شرفة سيسل . إن لم أنحن فوق السور فلا
سبيل لرؤيته . البحر يمتد مباشرة كأنما أراه من سفينة . وهو يترامى
حتى قلعة قايتباى محصورا بين سياج الكورنيش وذراع حجرى يضرب

في الماء كالغول . بينهما يختنق البحر . يتلاطم موجه في تهاقل وهو
كظيم . بوجه أسود ضارب للزرقة منذر بالغضب . يضطرم بياطن
محشو بأسرار الموت ونفائاته .

أما الغرفة فتنتجع بسحنة كلاسيكية . تذكرني بسرأي آل علام
بطنطا . لذلك أضيق بها . وقد غرب مجد الريف وجاء عصر الشهادات
يحملها أبناء السفلة . حسن ، لتكن ثورة . ولتدكم دكا . إني أتبرأ
منكم . سأنشئ عملا . أتبرأ منكم يافئات العصور البالية .
فريكيكو .. لا تلمنى .

ذات يوم — ومحمد النوى يقدم لي الإفطار في الحجرة — خطر لي
أن أقول له :

— كم أشعر بالضجر في فندقكم العظيم !
عادة قديمة لي أن أقيم علاقات طيبة مع خدام الفنادق التي أنزل بها .
بالمؤانسة والسخاء ، لحين الحاجة إليهم ! . وإذا بالرجل يسألني :
— هل تقيم في الإسكندرية مدة طويلة ؟
— جدا !

— أليست الإقامة في بنسيون معقول أفضل لك في تلك الحال ؟
نظرت إليه مستطلعا فقال :

— هناك بنسيون نظيف ومعقول . ستجد فيه تسلية أكثر ونفقات

أقل، ولكن ليكن ذلك سرا بيننا !

ظريف ومفيد وخائن . يخدم في جهة ويعمل لحساب أخرى
ككثيرين من مواطني الأعداء . وحق أن للبنسيون جوا عائليا حميما .
وهو أنسب لمن يفكر في مشروع جديد . وهل ساقنى إلى سيسل إلا
عادة قديمة متأصلة وكبرياء لم يخفف من غلوائه بعد ؟!

* * *

فتحت شراعة الباب عن وجه جميل . أجمل مما يليق بخادمة . أجمل
مما يليق بسيدة . يا لها من شابة مليحة . وسوف تعشقنى من النظرة
الأولى .

— نعم ؟

فلاحة ؟. عجبا . ليدفن سيسل في جوف الأمواج السوداء .

— من طرف محمد كامل بفندق سيسل .

أجلستنى في المدخل ومضت إلى الداخل . جعلت أنظر إلى الصور
كمقدمة لمعرفة أصحابها . من هذا الضابط الإنجليزي ؟. ومن الحساء
المتكئة على ظهر الكرسي ؟. جميلة ومثيرة . ولكنها قديمة !. موضة
الفيستان تقطع بأنها كانت معاصرة للعذراء !

وجاءت عجوز مضيئة مذهبة . صاحبة البنسيون بلاريب . الطراز
الكامل لقوادة إفرنجية متقاعدة . أو غير متقاعدة كما أرجو . وتلك
صورتها قبل أن يخربها الزمن . ها هي الأمور تتضح . لقد ترجم محمد

— ٩٢ —

كامل شكواى من الضجر بلغته الخاصة . وخيرا فعل . وكلما توفر
الترفيه تهاى الجو للتفكير فى المشروعات الجديدة .

— حجرة خالية يا مدام .

— كنت تقيم فى سيسل ؟

بهرها ذلك بلا شك . تمنيت أن ترجع إلى الورااء أربعين عاما .
وأجبت بالإيجاب فسألت :

— كم يوما ؟

— على الأقل شهر وقد يمتد عاما .

— إلا أشهر الصيف فلا بد من اتفاق خاص .

— ليكن ..

— طالب ؟

— من الأعيان .

جاءت بالسجل وهى تسألنى عن اسمى فقلت :

— حسنى علام .

غير مثقف وذو مائة فدان على كف عفريت وسعيد الحظ لأنه لم
يعرف الحب الذى يتغنى به المطربون .

* * *

حجرة مقبولة بنفسجية الجدران . ها هو البحر يترامى فى زرقة
صافية حتى الأفق . ونسائم الخريف تلاعب الستائر ، وفى السماء

— ٩٣ —

قطعان مبعثرة من السحائب . التفت نحو الفلاحة وهي تفرش السرير
بالملاءات والأغطية . جسمها قوى رشيق مفصل المحاسن ، وإن صدق
ظنى فهي لم تحبل ، ولم تجهض بعد ! . على أى حال من المستحسن أن
أتأنى حتى أحيط بأسرار المكان .

— اسمك يا حلوة ؟

أجابت بوجه جاد :

— زهرة .

— عاش من سمي .

شكرتنى برأسها وبلا ابتسامة .

— يوجد في البنسيون نزلاء آخرون ؟

— رجلان وشاب مثل حضرتك ..

— وأى اسم أختار لك للدلاعة ؟

أجابت بأدب ودون تشجيع :

— اسمى زهرة .

جادة أكثر مما يليق . سوف تكون زينة أى شقة أستأجرها في

المستقبل . وهي أجمل من قريتي الحمقاء التي قررت أن تختار عريسها

على ضوء الميثاق .

فريكيكو .. لا تلمنى ..

— ٩٤ —

— أأنت جاد فيما تقول ؟

— طبعا يا عزيزتى ..

— ولكنك فى رأى لا تعرف الحب !

— أريد أن أتزوج كما تريد ..

— يخيل لى أنك لا يمكن أن تحب .

— أريد أن أتزوج منك ، ألا يعنى هذا أننى أحبك ؟

ثم قلت وأنا أراوغ الغيظ والغضب :

— وإنى كفء للزواج ، أليس كذلك ؟

بعد تردد قالت :

— ما قيمة الأرض الآن ؟

حملت نفسى مسئولية الموقف المهين ثم مضيت وأنا أقول :

— سأتركك لتفكرى فى هدوء ..

على مائدة الإفطار تم التعارف بينى وبين النزلاء الآخرين . عامر
وجدى صحفى متقاعد فى الثمانين على أقل تقدير ، نجيل مع ميل لى
الطول ، وذو صحة يحسد عليها ، ووجهه المتجدد الغائر العينين البارز
العظام لم يدع للموت شيئا يلهيه . كرهت منظره ، وعجبت كيف
يبقى حيا على حين تهلك أجيال من الشباب كل يوم .

طلبة مرزوق لم يكن بالغريب على . وقد علق عمى ذات يوم يعطف

— ٩٥ —

على وضعه تحت الحراسة ، ولكنى لم أشر إلى ذلك بطبيعة الحال . كنا
وما زلنا نتابع أخبار الحراسة بشغف شهوانى مخيف كأفلام الرعب .
وقد سألتنى :

— من آل علام بطنطا ؟

أجبت بالإيجاب . وبسرور خفى . فقال :

— عرفت والدك . كان مزارعا ممتازا ..

ثم التفت إلى عامر وجدى — وكان يغادر المائدة — وقال
ضاحكا :

— ولم يقع رحمه الله طويلا تحت تأثير المهرجين !

ولما أدرك أننى لم أفهم ما يعنيه قال :

— أقصد الوفديين .

فقلت بعدم اكتراث :

— مدى علمى أنه كان وفديا عندما كانت البلاد كلها وفدية ..

آمن على قولى ثم عاد يسألتنى :

— أظن لك إخوة وأخوات ؟

— أخى قنصل بإيطاليا وأختى زوجة لسفيرنا فى الحبشة !

فتحرك شذقاه حركة راقصة ثم سألتنى :

— وأنت ؟

كرهته فى تلك اللحظة حتى وددت له الموت غرقا أو حرقا ، ولكنى

— ٩٦ —

أجبت باستهانة :

— لا شيء ..

— ألا تزرع أرضك ؟

— إنها مؤجرة كما تعلم ولكنى أفكر فى إنشاء عمل جديد ..

كان يتابعنا سرحان البحيرى — النزىل الثالث ووكيل حسابات شركة الإسكندرية للغزل — وكذلك المدام العجوز . وسألنى

سرحان :

— أى عمل ؟

— لم أستقر على رأى بعد .

— أليس الأضمن أن تبحث لك عن وظيفة ؟

كرهته فى تلك اللحظة هو الآخر . به لهجة ريفية خفيفة لصقت به كرائحة طعام فى إناء لم يحسن غسله . وهو حيوان لا يسع مرفت أن تصمه بأنه غير متعلم أو غير مثقف . وإذا سولت له نفسه أن يسألنى عن شهادتى فسأقذفه بقدرح الشاى .

* * *

— من أين جاءك هذا الحماس للثورة ؟

— هذا ما أعتقده يا عمى ..

— لا أصدقك !.

— بل صدقنى بلا تردد .

— ٩٧ —

ضحك ضحكة فاترة وقال :

— الظاهر أن اعتذار مرفت قد أطاح بعقلك !

فقلت باستياء :

— الزواج كان فكرة عابرة !

فقال باستياء أيضا :

— رحم الله والدك ، أورثك عناده دون حكمته !

وكم أغرااني الغيظ بالهجوم على الثورة ممثلة في شخص سرحان المنتفع
بها بلا شك ولكنى لم أستسلم للتهور . وسألتنى المدام العجوز :

— لم لا تحدثنا عن مشروعاتك ؟

— لم أجده بعد .

— إذن فأنت غنى ؟

ابتسمت بثقة دون أن أجيب فراحت تنظر إليّ باهتمام .

غادرت البنسيون أنا وسرحان فحملنا المصعد معا . جعل ينظر إليّ
بعينين باسميتين داعيتين إلى مزيد من التعارف فخف سخطى عليه
درجات . وقال وكأنه يصحح خطأه دون شعور منه :

— الوظيفة اليوم أضمن مما عداها ولكن العمل الحر إذا اختير

بحكمة ..

(ميرamar)

تركنا المصعد قبل أن يتم جماعته ولكن لهجته المؤيدة أغنت عن الكلام . وافترقنا فمضى نحو محطة الترام ، ومضيت نحو الجراح . مررت أمام مقهى الميرامار القائم أسفل العمارة فتذكرت جلوسى به مع عمى فى الأيام الخالية ، وقبل وقوع الكارثة . كان يذهب إليه فى الأصائل ليدخن النارجيلة ، فيجلس متلفعا بعباءته الخفيفة كملك متنكر فى ثياب العامة ، يتوسط مجموعة من الشيوخ والنواب والأعيان ١. أجل تلك أيام خلت ، ولكنه يستحق أكثر مما حاق به .

استقللت سيارتى الفورى بلا هدف معين سوى رغبتى الأبدية فى التجوال والسرعة . وقلت لنفسى إنه من المستحسن ألا أنبذ سرحان البحرى فقد أجد نفعاً فى خبرته ومعارفه بالمدينة . وانطلقت بالسيارة إلى الأزاريطة فالشاطبى فالإبراهيمية إلخ ، فى سرعة خاطفة استجابت لها أعصابى المتوترة . اخترقت هواء نسيطا لطيفا منعشا تحت سماء ظللها الغمام . وبدا الكورنيش المحفوف بزرقة البحر نظيفا نقيا ، قد تطهر من عرق المصيفين وصخبهم ، وقلت بتصميم لن أعود إليك يا طنطا إلا لأقبض نقودا أو لأبيع أرضا ، فلتذهبى بذكرياتك إلى الجحيم .

ملت إلى مستعمرة السيوف ثم مرقت إلى شارع أبى قبر ، سيد الشوارع ، فازددت سرعة وطربا وتحديا . وتساءلت بأسى أين الأوروبيات .. أين الجمال .. أين سبائك الذهب . وحضرت الحفلة الصباحية بسينما مترو . غازلت فتاة فى الاستراحة أمام البوفيه . تناولنا

الغداء فى عمر الخيام . نمنا القيلولة معا فى مسكنها بالإبراهيمية . عدت إلى البنسيون عصرا وقد نسيت اسمها تماما . كان المدخل والصالة خاليين فأخذت دشا ، وتحت الماء تذكرت الفلاحة المليحة . ولما عدت إلى حجرى طلبت قدح شاي لأراها من جديد . وقدمت لها قطعة شيكولاتة فترددت ولكنى ألححت عليها قائلا :

— كيف لا ونحن أسرة واحدة !

وجعلت أنظر إليها بسرور وهى تنظر إلى بلا ارتباك أو تنظر إلى الأرض . خائفة ؟ .. مأكرة ؟ .

— زهرة ، هل يوجد مثلك كثيرات فى الريف ؟

قالت متجاهلة مقصدى :

— لا عد لهم ولا حصر .

— ولكن كم منهن جميلة مثلك ؟ ..!

فشكرت لى هدية الشيكولاتة وذهبت . خائفة ؟ . مأكرة ؟ . على أى حال لست بحاجة إليها الآن . ومن حقها شىء من التمتع والدلال . ومن حقها كذلك أن أعترف بأنها فائقة الجمال . فريكىكو .. لا تلمنى ..

* * *

نظرت طويلا إلى صورة المدام القديمة حتى ضحكت متسائلة :

— تعجبك ؟

— ١٠٠ —

وقصت على قصة زواجها الأول ، ثم الثانى .

— كيف ترانى الآن ؟

فقلت وأنا أرى عروق معصمها النافرة وبشرتها المتكاثفة كقشرة السمكة :

— جميلة كما كنت !

فقلت بتسليم :

— المرض كبرنى قبل الأوان .

ثم بلا تمهيد :

— ولكن هل من الحكمة أن تجازف بنقودك فى مشروع جديد ؟

— لا بأس بذلك أبدا .

— وإذا استولت عليه الحكومة ؟

— توجد أعمال مضمونة .

خمنت أنها تتردد فى زحزحة البلاطة فقلت معايبا :

— ما أجمل أن نشترك معا فى عمل مشر !

تظاهرت بالدهشة وقالت ضاحكة :

— أنا !.. أوه .. البنسيون لا يجيء إلا بالكفاف !

وانضم إلى مجلسنا قلاوون الصحافة . جاء متدثرا فى روب سميك .

ووجدته بشوشا رغم شيخوخته الكريهة . وقال كمن يعلق على حالى

وحاله :

— ١٠١ —

— الشباب يبحث عن المغامرة ، الشيخوخة تنشد السلامة .

تمنيت له صحة طيبة فسألنى :

— أجيئت الإسكندرية من أجل المشروع ؟

فأجبت بالإيجاب فعاد يسأل :

— وهل أنت جاد فى سعيك ؟

— لقد ضقت بالفراغ .

فردد قائلاً :

إن الشباب والفراغ والجدد مفسدة للمرء أى مفسده ولكنى أكره الشعر كما أكره سيرة الشهادات . وشعرت باستعلاء فارس
تركاى يعيش بين رعا ع . حق قد صقل الحظ بعضهم . نفس الحظ
الذى ينفخ شمعتنا لتنطفئ . وقلت لنفسى إن الثورة ظاهرة غريبة مثل
الكوارث الطبيعية . وإننى كمن يستقل سيارة فارغة البطارية .
وإذا بشاب جديد يظهر من وراء البارفان متجهاً نحو الباب الخارجى
فدعته المدام للجلوس وقدمته إلينا قائلة :

— مسيو منصور باهى .

مذيع فى محطة الإسكندرية . شهادة عالية جديدة ، ووجه وسيم
دقيق ولكنه خلو من الرجولة . وهو أيضاً من الرعا ع المصقولين . وفى
تحفظه ما يغرى بلكمه . وقد سألت المدام بعد ذهابه :

— نزيل عابر أم مقيم ؟

فقلت بتيه :

— مقيم يا عزيزى ، أنا لا ينزل عندى العابرون !
ورجعت زهرة من الخارج بحافظة من البلاستيك مثقلة بالبقالة .
تابعها وهى تمضى بهم . البلد مكتظة بالنسوان ولكن البنت مشيرة
لغرائزى .
فريكيكو .. لا تلمنى .

— أخيرا وقعت فى الحب ؟
— طانط .. لا حب ولا هيام .. لكنها فتاة ممتازة .. ومن لحمى
ودمى .. وأنا أريد أن أتزوج .
— على أى حال فأنت شاب تتمناك أى فتاة .

ليلة أم كلثوم متوجة حتى فى بنسيون ميرامار . أكلنا وشرينا
وضحكنا . خضنا فى كل موضوع حتى فى السياسة . لكن الخمر
نفسها لم تستطع أن تقهر عاطفة الخوف . صال عامر وجدى وجال
فحكى على الرابة أساطير مجد لا شاهد عليها إلا ضميره . صمم الرجل
الحرب على إقناعنا بأنه بطل قديم ، وإذن فلا يوجد إنسان عادى فى هذه
الدنيا اللعينة . كذلك لا يوجد فرد واحد غير متحمس للثورة . حتى
دليلة مرزوق ، حتى حضرتى . علينا بالحذر . سرحان متفجع ومنصور

غالبا مرشد ، حتى العجوز فمن يدري ، والمدام نفسها لا يبعد أن تكلفها جهات الأمن بنوع من المراقبة . ولما جاءتني زهرة بزجاجة صودا سألتها :

— وأنت يا زهرة .. تحبين الثورة ؟

فقلت المدام :

— أوه .. انظر إلى الصورة المعلقة في حجرتها !

هل أعتبر ذلك إذنا بالتسلل إلى الحجرة ! . ورغم أن الويسكى صهرنا في بوتقة ألفة خميمة إلا أنني شعرت بأنها عابرة ، وستظل عابرة . لن تقوم صداقة حقيقية بيني وبين سرحان أو منصور . مودة عابرة ستمضى كما مضت البنت التي التقطتها من بوفيه مترو . وقلت لنفسى إن على أن أجد عملا أفرغ فيه طاقتى وأملأ به وقتى ولا تعرضت لأن أرتكب خماقة خرقاء أو جريمة قتل تناسب المقام . ومن المسلم به أننى سأبقى عازبا إلى الأبد كيلا أرتطم بلفظة « لا » مرة أخرى ، ولأنه لن توجد الفتاة الكفاء لى فى مجتمعا النامى . يمكن بعد ذلك أن أعتبر جميع النساء حريما متنقلا لمزاجى ، إلى خادمة ممتازة للمء فراغ شقتى المستقبل . خادمة مثل زهرة . بل هى زهرة بالذات . وسوف ترحب بذلك بكل امتنان . ستمارس مهنة ست البيت مع الإعفاء من متاعب الحمل والولادة والتربية . وهى جميلة ، وسوف تروضها حقارة أصلها على تحمل نزواتى وغرامياتى اللامتناهية . وإذن فالحياة مقبولة رغم كل

— ١٠٤ —

شيء ، وواعدة بمسرات لا بأس بها .
وبالغ سرحان في حكي النوادر حتى سقطت قلوبنا من الضحك .
ومنصور قد ينفجر ضاحكا ثم سرعان ما يتقهقر إلى قوقعته .

اسمعوا .. اقرءوا .. هذا حكم بالإعدام .. هل يقف الإنجليز
مكتوفي الأيدي حتى تحتاجنا الشيوعية !

بدأ الغناء . بدأ السماع . كالعادة شملنى توتر . أجل إنى أستطيع أن
أتابع مقطعا أو مقطعين ثم يدركنى التشتت والملل . ها هم يهيمون في
الطرب ، وها أنا أغرق في وحدة . والذي أدهشنى حقا أن المدام تحب
أم كلثوم كالأخرين .. ولعلها لاحظت دهشتى فقالت :
— سمعتها عمرا طويلا .

وراح طلبة مرزوق يستمع بعمق ، ثم مال إلى أذنى هامسا :
— من نعمة الله أنهم لم يصادروا أذنى !

أما قلاوون فقد أغمض عينيه وراح يسمع أو راح في سبات .
استرقت النظر إلى زهرة فوق مقعدها عند البرافان . جميلة حقا ولكن
هل تسمع ؟ ، فيم تفكر ؟ ، أى أمل يراودها ؟ ، هل تحيرها الحياة كما
تحيرنا ؟ . ومضت بغتة إلى الداخل والجميع بالطرب سكارى ، فقامت
إلى الحمام لألتقى بها في الطريقة . داعبت ضفيها وهمست :

— ١٠٥ —

— لا شيء أجمل من الطرب إلا وجهك .

جفلت في صلابة فتقدمت منها لأضمها إلى صدرى ولكنى توقفت
أمام نظرة باردة منذرة .

— طال انتظارى يا زهرة !

تراجعت بخفة ثم ذهبت إلى مقعدها . حسن . فى سراى علام بطنطا
عشرات من أمثالك ألا تفهمين ؟ . أم ترين ثقافتى دون الكفاية يا روث
الجاموسة ؟ . رجعت إلى مجلسى . وبتأوهات مفتعلة إعجابا بغناء
لا أتابعه داريت غيظى . ثم وثبت بى رغبة ملححة فى الجهر برأبى لأكون
صادقا مع نفسى ولو مرة واحدة فى السهرة الطويلة ، ولكنى لم أفعل .
وفى الاستراحة انتهزت فرصة التفرق المؤقت للمجتمعين فغادرت
البنسيون .

انطلقت بالسيارة إلى كليوباطرة . كان الجو باردا عاصفا ولكنى
كنت مشتتلا بحرارة الخمر . قصدت مسكن قوادة ملطية كنت أتردد
عليها فى ليالى الصيف . وقد دهشت لحضورى بعد انتصاف الليل وفى
ذلك الوقت الموحش المقفر من العام . وقالت لى :

— لا أحد فى البيت سوى ، ولا أستطيع أن أدعو واحدة الآن .
وقفت أمامى فى قميص النوم ، فى الخمسين أو أكثر ، بدينة
مترهلة ، لا تخلو من مسحة أنثوية ، وثمة زغب يعلو شفتها كالشارب .
دفعتها إلى حجرتها وهى تقول بدهشة :

— ١٠٦ —

— ما هذا !.. لست مستعدة .

فقلت ضاحكا :

— لا أهمية لذلك ، ولا أهمية لشيء .

ثم أمضينا ساعة أخرى في ثرثرة حتى سألتني عما جاء لي إلى الإسكندرية . ولما حدثتها عن هدى قالت :

— إنهم الآن يصفون أعمالهم ويذهبون .

فقلت لها وأنا أتشاءب :

— لن أنشئ شركة ولا مصنعا .

— إذن فأبحث عن خواجا مناسب لتحل محله .

— فكرة لا بأس بها ولكن علي أن أدرس كل شيء .

وفي طريق العودة هطل المطر بشدة . رأيت طريقى بصعوبة رغم نشاط ماسحة المطر . وقلت لنفسى بغضب إن الوقت يتبدد سدى !

جميلة .. رغم رائحة المطبخ جميلة .

— قطعتان من السكر من فضلك .

دعوتها بذلك لإذابة السكر في الشاي ، وللبقاء دقيقة .

— كنت جافة معي يا زهرة .

— كلا ، ولكنك تجاوزت الحدود .

— أردت أن أعرب لك عن مشاعري .



إذن فابحث عن خواجه مناسب لتحل محله

— ١٠٨ —

فقلت بصراحة حادة :

— إني هنا للعمل وحده .

— هذا أمر مفروغ منه ..

— الظاهر أنك لا تصدقه ..

— أخطأت فهمي يا زهرة !

— إنك سيد طيب فكن طيبا معي ..

وذهبت فطاردها صوتي قائلا :

— سأحبك إلى الأبد !

هلم معي إلى رحلة غربية . يوم رهيبي ، زجر وتأنيب من أخى ،
تأنيب من عمي ، المدرسة المدرسة ، بنا إلى الطريق الزراعي ، رحلة
طويلة وغربية ، شمالا وجنوبا ، ليلا ونهارا ، عند كل بلدة نتزود بالطعام
والشراب ، لم أعد قاصرا ..

إني رأيتهما معا .

في الطريقة أمام الحمام رأيتهما معا . إذن فهو ذلك السرحان . قرص
خذك بخنان . لم يرتفع رأسك في غضب . وجهك الجميل ابتسم وشع
منه نور أسمر . وتحركت ضفيريته في دلال كالخال في حقول الذرة .
سبقني الفلاح بأيام . لا ضير من ذلك ألبتة إذا روعيت العدالة في

— ١٠٩ —

التوزيع . ولو يكن لي يوم وله يومان .

ضحكت طويلا وأنا أستقل الفوردي . وهتفت :
فريكيكو .. لا تلمني .

أوصلت طلبة مرزوق بالسيارة إلى التريانون فدعاني للجلوس معه .
مررنا في طريقنا إلى مجلسنا بسرحان البحيري وهو ينفرد بشخص آخر
فتبادلنا التحية . سألتني طلبة كيف أمضى وقتي فأجبتته بأنني أتجول
بالسيارة وأفكر في المشروع الجديد . سألتني :

— ألك خبرة في نشاط معين ؟

أجبت بالنفي ، فقال :

— لا تلق بنقودك في بئر

— ولكنني مصمم ..

— تزوج لتتعلم الحكمة !

فقلت وأنا أكظم غيظي متورما :

— إنني مصمم على العزوبة والمشروع .

أشار صوب سرحان البحيري وقال :

— ولد ذكي ..

فسألته باهتمام :

— ١١٠ —

— أعرفت عنه شيئا ؟

— ثمة صديق قديم على صلة بالشركة يصفونه هناك بأنه شاب
ثورى ، وفي هذا الكفاية ..

— أتظنه مخلصا ؟

— نحن نعيش في غابة يتعارك وحوشها على أسلابنا ..

داخلى ارتياح خفى فمضى يقول :

— ما تحت البدلة إلا مجنون بالترف !

فقلت بتسليم وأنا مطمئن إلى وحدتنا :

— ولكن ثمة إصلاحات لا يمكن إنكارها ؟

حرك شذقيه حركة غريبة وقال :

— قصد بها أناس لم يرتقوا بعد إلى درجة الوعى . وهم — مثلنا —

تحت رحمة البذل .

ولما آن لى أن أرجع إلى البنسيون لحق بى سرحان فى الخارج فأركبته

معى فى السيارة . كأنما خلق اللعين لكى يألف ويؤلف . ورغم ازدرائى

له فإنى أبقى عليه لعلى أنتفع به فى وقت الحاجة . وقد لكزته بكوعى وأنا

أقول ضاحكا :

— حلال عليك يا عم !..

نظر إلى باسما ومستطلعا فقلت :

— زهرة !

— ١١١ —

رفع حاجبيه الكثيفين ولكنه أرخى عينيه في تسليم ، فقلت :

— إنك فلاح كريم فلا تبخل على ..

فقال بوجوم :

— الحق أنى لا أفهمك ..

ضحكت ساخرًا وقلت :

— سأكون صريحًا معك كما يجدر بالأصحاب ، أعطيتها نقودا أم

تعطى المدام ؟

فقال بإنكار :

— لا .. لا .. ليس الأمر كما تتصور ..

— إذن فكيف أتصوره على حقيقته ؟

— إنها فلاحه طيبة ، ليست ..، صدقنى ..

— ليكن . الظاهر أنى استوقفت سيارة « ملاكى » بظن أنها

تاكسى ..

فريكيكو ، لا تشغل بالك بأشياء تافهة . الخطأ أننى صادقت زمنا

عدوا وأنا أحسبه الصديق . ولكنى سعيد بحيرتى . لقد قذفت لى طبقتى

إلى الماء والقارب يميل إلى الغرق ، ولكنى سعيد بحيرتى . لا ولاء عندك

لشئ . سعادة عظمى ألا يكون لك ولاء لشئ . لا ولاء لطبقة

أو وطن أو واجب . لا أعرف عن دينى إلا أن الله غفور رحيم .

فريكيكو .. لا تلمنى ..

انفجرت في الخارج ضجة لا عهد للبنيون بها .
كنت مستيقظا لتوى من القيلولة فخرجت إلى الصالة . وضح لي أن
ثمة معركة في المدخل . نظرت من فرجة البارفان فرأيت مشهدا مسليا
حقا . امرأة غريبة ممسكة بتلايب صديقنا البحيري تنال عليه ضربا
وسبا . وزهرة واقفة متوترة الأعصاب تنطق بكلمات سريعة وتحاول
التخليص بينهما . المرأة تنقض على زهرة فجأة ولكن زهرة أثبتت أنها
مصارعة ذات جبروت . لكمتها مرتين ، وفي كل مرة أطاحت بها حتى
ألصقتها بالجدار . إنها جميلة ولكنها خفير ذو قبضة حديدية . لبثت
متواريا لأتيح لنفسي أكبر قدر من تسلية فريدة حقا . ولكنني عندما
ترامى إلى صرير أبواب خرجت من مكمنى ، فأخذت المرأة الغريبة من
معصمها ، وذهبت بها خارجا وليس عليّ — عدا البيجاما — إلا
الروب . دفعتها برقة أمامي ، معلنا لها عن أسفى ، واضعا نفسى في
خدمتها . كانت تغلى بالغضب غليانا ، وتسب وتلعن ، ولم يبد عليها
أنها أحست بوجودى بعد . إنها امرأة لا بأس بها وقد أوقفتها عند بسطة
السلم بالدور الثانى وأنا أقول :

— انتظري لحظة ، يجب أن تصلحى خالك قبل الخروج إلى
الشارع ..

سوت شعرها ، وشبكت طوق فستانها الممزق بمشبك من شعرها ،
ثم أعطيتها منديلا معطرا التمسح به وجهها .

— ١١٣ —

— سيارتي أمام العمارة سأوصلك إذا سمحت بها ..
نظرت إلى لأول مرة . شكرتني بعجلة ، ثم نزلنا معا جلست في
السيارة إلى جانبي فسألتها عن المكان الذي تود الذهاب إليه فتمتمت
بصوت مبحوح :

— الأزاريطه ..

سرنا تحت سماء ملبدة بالغيوم وقد عاجلنا الظلام قبل أوانه . قلت
مستدرجا :

— لعنة الله على الغضب ..

فهتفت :

— السافل الحقير !

— يبدو أنه فلاح طيب ؟

— سافل حقير ..

تساءلت بسخرية خفية :

— خطيبك ؟

لكنها لم تجب . ما زالت مشتعلة . وهي امرأة لا بأس بها ، ومحترفة
بطريقة ما على وجه اليقين . أوقفت السيارة أمام عمارة بشارع الليدو
فقالت وهي تفتح الباب :

— أشكرك ، إنك رجل كريم ..

— لا أريد أن أتركك وحدك لأطمئن عليك !

(ميرامار)

— ١١٤ —

— أشكرك ، إني على خير حال ..

— إذن فهو الوداع ؟

مدت يدا لتصافحني ثم قالت :

— إني أشتغل في الجنفواز !

درت بالسيارة وأنا متحمس لمعرفة مزيد من المعلومات بيد أن
تحمسى فتر قبل أن أبلغ العجالة . الأمر واضح وتافه . عشق وهجر ثم
معركة تقليدية . وها هو يلقي زهرة فيبدأ حكاية جديدة . والمرأة
لا بأس بها وقد أحتاج إليها ذات ليلة . ولكن ما الذى دفعنى إلى تكبد
مشاق هذه الرحلة السخيفة ؟

فريكيكو .. لا تلمنى ..

السيارة تطير فوق أرض الشوارع السنجابية ، المصاييح وأشجار
الكافور تركض فى الاتجاه المضاد . السرعة الانسيابية تنعش القلب
فتنفض عنه الخمول والملال . ويزمر الهواء ويرعش الأغصان فتتشبت
فى انتشارات جنونية . أو ينهمر المطر فيغسل الزرع فتضىء الحقول
بخضرة متألفة . من قايتباى إلى أبى قير ، من بحرى حتى السيوف ،
البطن والأطراف ، وكل أرض ممهدة : أهم فوقها بسيارتى .
والوقت يمر ولا خطوة جديدة أخطوها لتحقيق المشروع .
وخطر لى أن أقوم بجولة استكشافية فى مراكز الإشعاع الأصلية .

زرت قوادة قديمة بالشاطبي فجاءتنى بفتاة مقبولة للصباح . وتناولت
 الغداء عند قواده ثانية باسبورتنج فأمدتنى بامرأة أرمنية فوق المتوسط .
 أما قوادة سيدى جابر فأهدت إلى فتاة رائعة من أم إيطالية وأب سورى
 فأصررت على دعوتها إلى سيارتى . حذرتنى من الغيوم المنذرة بالمطر فقلت
 لها إنى أتمنى أن يهطل المطر وفى الطريق الزراعى إلى أبى قبر هطل المطر
 واختفى البشر فأحكمت إغلاق النوافذ ورحت أنظر إلى الماء المنسكب
 والأشجار الراقصة والخلاء النقى الذى لا نهاية له وقد ذعرت الجميلة
 وقالت إن هذا جنون فقلت لها تصورى مخلوقين مثلنا عارين تماما فى
 سيارة وآمين رغم ذلك من أى تطفل يتبادلان القبل على انفجارات
 الرعد ووميض البرق وانهلal المطر فقالت إنه المحال فقلت ألا تودين أن
 تخرجى اللسان للدنيا ومن عليها وأنت فى حماية هذه الغضبة الكونية
 فقالت محال .. محال .. فقلت ولكنه سيتحقق بعد ثوان وشربت من
 فوهة الزجاجاة وكلما جعجع الرعد استحثته على المزيد وتوسلت إلى
 السماء أن تفرغ مدخرها من الماء فقالت الجميلة قد تتعطل السيارة
 فقلت لها آمين .. فقالت وقد يدركنا الظلام فقلت وليدم إلى الأبد
 فقالت إنك مجنون .. مجنون .. فصحت بأعلى صوتى : فريكيكو ..
 لا تلمنى ..

* * *

على مائدة الإفطار بلغتنى الأنباء العجيبة على القرار الذى اتخذته زهرة

للتعلم . سمعت تعليقات شتى لم تخل من مزاح ، ولكن غلبت عليها روح تشجيع . حز في نفسي الخير فنكأ الجرح القديم . لقد نشأت بلا رقيب حقيقى فاجتاحنى اللهو . ما أسفت على شيء وقتذاك ولكننى أدركت متأخرا أن الزمن عدو وليس بالصدى الذى توهمته . وها هى الفلاحة تقرر أن تتعلم . وقد شرحت لى المدام ظروفها ما بين القرية والإسكندرية . توكد لى أنها ليست من توابع المدام ، ولعلها ما تزال عذراء إلا يكن سرحان ممن يضيقون بالعذارى ، ولكننى قلت للمدام
بجث :

— ظننت زهرة ..

وأشرت بيدى إشارة ، فقالت :

— لا .. لا ..

فتجاهلت الموضوع بغتة قائلا :

— يجب أن تفكرى فى المشروع المشترك !

فتساءلت بدهاء قوادة :

— من أين لى بالمال ؟

فهمست باهتمام مصطنع :

— ماذا لو أردت أن أدعو صديقة إلى هنا ؟

هزت رأسها آسفة وقالت :

— البنسيون مشغول كله ، وإذا سمحت لواحد فكيف أرفض

آخر ؟، ولكن يمكن أن أدلك على مكان إذا أردت ..
ولما صادفت زهرة في الصلاة هناؤها على قرارها وقلت لها ضاحكا :
— شدى حيلك ، فعندما يتحقق مشروعى سأكون فى حاجة إلى
سكرتيرة !.

فابتسمت فى ابتهاج حتى أطلت آى الملاحه من قسماتها . الحق أن
رغبتى فيها لم تمت . ومع سابق علمى بأننى سأشبع منها فى أسبوع إلا
أنه أسبوع ضرورى فيما بدا لى .

راحت السيارة تجوب الشوارع والأحياء . فى جو صاف هادئ
معتدل لدرجة أثارت أعصابى . ولكى أستمتع بأكبر قدر من السرعة
الجنونية بلا عائق اتجهت إلى الطريق الصحراوى فانطلقت فيه بسرعة
مائة وعشرين ك ، مقدار ساعة ، ثم رجعت بنفس السرعة . تناولت
الغداء فى بام بام « . والتقطت فتاة لدى مغادرتها لمحل حلاق . ثم
رجعت إلى البنسيون حوالى العصر . رأيت زهرة جالسة إلى فتاة
بالمدخل فأدركت من النظرة الأولى أنها المدرسة . جالست المدام
واسترقت إلى المدرسة النظر . لا بأس بها . ثمة احديداب خفيف
لا يكاد يلحظ ، وفطس بالأنف مقبول بل ومثير . من المؤسف أن فتاة
مثلها لا تقبل ليلة حب عابرة . لا بد لأمثالها من علاقة وطيدة طويلة .
وقد لا ترضى بذلك أيضا فترمى بنظرها البعيد إلى الزواج متخطية دعوة

الثورة إلى تحديد النسل .

تم التعارف عن طريق المدام . وقد قدمتنى كعادتتها بالكامل ، أى بالمائة فدان والمشروع ، فسررت لذلك وحدث لها لباقها المستقاة من خبرة السنين . وركزت في جولاتي على حى محرم بك حيث تقع مدرستها . وأثمرت خطتي فرأيتها مرة قبيل العصر واقفة في محطة الباص . أوقفت السيارة ودعوته إلى الركوب . ترددت قليلا ولكن شجعها على قبول دعوتي تلبد السماء بالغيوم . أوصلتها إلى عمارتنا وأنا أشكو لها وحدثني في الإسكندرية ، وحاجتني إلى المشورة والرأى فيما يتعلق بمشروعى ، وقلت لها وأنا أودعها :

— أظننى بحاجة إلى لقاء آخر ؟ .

فقلت بترحيب :

— تفضل بزيارتنا ! .

الحق يافريكيكو أن سنى وثروتى يرشحاننى بمنطق حاسم للزواج . لذلك يتعذر على أن أرافق مدرسة أو طبيبة أو مذيعة أو موظفة . وعلى إن أردت توسيع مجال الحيوى أن أخدع الأبصار بدبلة زواج وهمى . ولم أجد ما أشغل به نفسى بقية اليوم إلا أن قصدت القوادة المائطية بكليوباترة فطلبت منها أن تدعو أكبر عدد ممكن من بناتها ، وسهرت سهرة عجيبة معربة موشاة بأبهج اللامعات التى لم يعرف التاريخ لها مثيلا منذ عهد خليفتنا خالد الذكر ٥. رون الرشيد .

— ١١٩ —

— إنه لم ير أمه .. وتركه أبوه وهو في السادسة .. لذلك لا أقسو عليه ..

كان يتكلم بهدوء أما أخى فكان ينتفض من الغضب .

* * *

حوصرت بالعجائز . الواقع أنسى لا أحب قلاوون الصحافة وهيئات أن أوفق إلى خير ما دمت أصبح على وجهه . وسألنى طلبة مرزوق عن مدى تقدمى فى مشروعى . وتشممت فى الجورائحة بخور فتساءلت عنها فضحك طلبة بك وقال :

— كان يجب أن ترى المدام وهى تطوف بالحجرات حاملمة المبخرة !.

نظرت إليها قائلاً :

— إذن فأنت تحبين أم كلثوم وتؤمنين بالمبخور ؟.

ابتسمت ابتسامة عابرة لشدة متابعتها لأغنية يونانية . وقلت لطلبة بك :

— يجب أن أجد خواجاً من ينوون الهجرة لأشترى عملة .

— فكرة حسنة ، ما رأيك يا ماريانا ؟

أجابت بعجلة حتى لا تنقطع عن الأغنية :

— نعم ، انتظر ، أظن صاحب مقهى ميرامار يفكر فى ذلك .

فسألتها :

— ١٢٠ —

— ماذا تعنى الأغنية ؟

أجابت بدلال :

— عن البنت فى سن الزواج ، ماما تسألها وهى تجيب معددة المزايا

التي تتطلبها فى العريس !

نقلت بصري بين صورة الكابتن وصورة شبابها فغمغمت :

— كان من الممكن أن أبقي سيدة حتى اليوم ..

— إنك سيدة تماما .

فقال محتجة :

— أعنى سيدة فى قصر الإبراهيمية !

والتفت نحوى قلاوون الصحافة وقال :

— لا تدع الوقت يمر دون أن تفعل شيئا ..

لعنته فى سرى . كان الجو قارص البرودة صامتا . وكنت على موعد

من الفتاة الإيطالية فى سكن القوادة بسيدى جابر .

فريكيكو .. لا تلمنى ..

علمت بزيارة شقيقة زهرة وزوجها على مائدة الإفطار

— قررت البقاء معنا بصفة نهائية ..

قالت المدام ذلك بارتياح ، فقلت :

— لنحمد الله على أن المقابلة مرت بسلام ، أعنى دون شروع فى

— ١٢١ —

القتل ! .

ثم قلت لسرحان البحيرى ساخرًا :

— الظاهر أن البحيرة خرعة !

— خرعة ؟ !

— يقال إن قربها من الإسكندرية قد أضعف من ضراوة تقاليدها

الريفية ..

فقال بصوته الرنان متباهيا :

— ذاك يعنى أنها أعظم تمدينا من سائر الريف !

* * *

ركب طلبة مرزوق معى لكى أوصله إلى فندق وندسور لمقابلة
صديق قديم . إنه الشخص الوحيد الذى أضمر له حبا واحتراما . وهو
يقوم أمام عيني كتمثال أثرى للملك قديم ، دالت دولته وولى زمانه ،
ولكنه يحتفظ بكافة مزاياه الذاتية . قلت له والخبث يسيطر على
أفكارى :

— ألم يكن الأجدر بالفلاحة أن تذهب مع أهلها ؟

فقال ضاحكا :

— كان الأجدر بها ألا تهرب من أول الأمر .

— أعنى أن لديها من الأسباب ما يمنعها من العودة حتى لو تمتها !

— تقصد الفتى البحيرى ؟

— ١٢٢ —

— ليس هذا بالضبط ما أعنيه ، ولكنه يرجع إليه على أى حال ! .
ضحك الرجل وقال :
— محتمل جدا ، ومحتمل أنه برىء مما تظن ، وأن آخر كان وراء
الدافع لهربها من القرية ! .

وقد تضاعف سوء ظنى عندما علمت — عقب ذلك بأيام —
برفضها الزواج من محمود أبو العباس بياع الجرائد . وكان محمود قد
شاورنى فى الأمر — كزبون قديم له — قبل أن يقدم على الذهاب إلى المدام
لطلب يد الفتاة . وعندما وقفت أمام معرضه فى اليوم التالى لمسهاه
الفاشل كنت واثقا من مناقشته للموضوع ومتأهبا له . كان يبدو
ممتعضا وحانقا . تبادلنا نظرات تغنى عن قول الكثير ، ثم قلت له
مواسيا :

— هاك عينة من بنات اليوم .

فقال بغضب :

— هيهات أن تجد مثلى الحمقاء ..

— سيعوضك الله بخير منها ، وإن أردت الحق فليس البنسيون بالمكان

المناسب لاختيار عروسك ..

— ظننتها بنتا طيبة ..

— أنا لم أقل إنها ليست كذلك ولكن ..

فسألنى باهتمام : — ولكن ماذا ؟ .

— ماذا يهمك منها وقد انتهى أمرها بالنسبة إليك ؟ .

— ليرتاح قلبي .

— أيرتاح قلبك لو قلت لك إنها تحب سرحان البحيرى ؟

— المجنونة !.. وهل سيتزوج الأستاذ سرحان منها ؟

فقلت وأنا أودعه :

— تكلمت عن الحب لا الزواج ! .

كنت أكره سرحان من أول يوم . أجل قد تهبط كراهيتى له لدرجة الصفر فى الأوقات التى يفتح لى قلبه المطبوع على الألفة والمعاشرة ولكن سرحان ما يرجع الحال إلى أصله . ولا دخل لزهرة فى هذه الكراهية فهى أتفه من أن تجعلنى أكرهه أو أحب إنسانا . ربما لصراحته العمياء أحيانا ، وربما لإصراره على الإشادة بالثورة لمناسبة ولغير ما مناسبة . لذلك فكثيرا ما أرغمنى على مجاراته ولو بالسكوت . وقد فاض لى الكيل مرة فقلت له :

— نحن مؤمنون بالثورة ولكن لم يكن ما سبقها فراغا كله .

فقال بعناد مثير :

— بل كان فراغا ..

— كان الكورنيش موجودا قبلها ، كذلك جامعة الإسكندرية ! .

— لم يكن الكورنيش للشعب ، ولا الجامعة ..

ثم سألتنى ضاحكا ، وبلا حقد ظاهر :

— ١٢٤ —

— خبرني لم تملك وحدك مائة فدان على حين أن كل ما تملكه أسرتي عشرة فقط ؟.

فسأله وأنا أكظم غيظي :

— ولم تملك عشرة على حين لا يملك ملايين من الفلاحين قيراطا واحدا ١١.

* * *

— مهما تقل فلن أصدق كلمة واحدة مما تقول ، إن رفض مرفت لك أطاح بعقلك ، ولا تصدق ما يقال عن العدالة والاشتراكية ، المسألة تتلخص في كلمة واحدة : القوة ، إن من يملك القوة يملك كل شيء ، ولا بأس بعد ذلك من أن يتغنى أمام الناس بالعدالة والاشتراكية ، وإلا فخبرني بالله هل رأيت أحدا منهم يسير في الأسواق شبه جائع مثل سيدنا عمر ؟.

* * *

على أى حال سرعان ما بلغنى الخبر اللذيذ عن القتال بين محمود أبو العباس وسرحان البحيرى يا بصل !. وتجاهلت الأمر احتراما لصمته ، بل انتهزت فرصة اجتماعى به فى مدخل البنسيون فسألته الرأى عن المشروع ، وإذا به يقول لى فى اهتمام :

— اصرف النظر عن مشروع المقهى وما شاكل ذلك ، إنك ابن ناس ، وعليك أن تختار مشروعا مناسبا .

— مثل ماذا ؟

— أنا أقول لك ، مشروع تربية دواجن وعجول مثلا ، إنه يدر
ذهبا .

ثم بعد تفكير قليل :

— ممكن أن نؤجر قطعة أرض في منطقة سموحة ، وممكن أن أساعدك .
بما لي من خبرة وأصدقاء وربما شاركتك إذا ما أسعفتني الظروف .

* * *

ما أضيّق الإسكندرية في عيني سيارة مجنونة . إلى أمرق فيها كالهواء
ولكنها انقلبت علبة سردين . الليل يتبع النهار في إصرار غبي ولكن
لا شيء يحدث على الإطلاق . ورغم أن السماء تتزين كل يوم برداء .
والطقس كالبهلوان لا يمكن التنبؤ بحركته التالية ، والنساء يقبلن في ألوان
لا حصر لها ، فلا شيء يحدث على الإطلاق . الكون في الحقيقة قد مات
وما هذه الحركات إلا الانتفاضات الأخيرة التي تند عن الجثة قبل
السكون الأبدى .

وتذكرت الجنفواز .

إنه يقع على الكورنيش متحديا البحر والشتاء ولكن بابه يقع في
شارع خلفي ضيق . له مسرح للغناء والرقص ، وتتوسطه باحة للرقص
المشترك ، وينتشر اللون الأحمر الكاوي في السقف والجدران والمصابيح
كأنه مأوى للجان ، ومن نظرة إلى فتياته وزبائنه يتسرب إلى النفس

إحساس محتوم بأنه ماخور .

رأيت فتاة البحرى ترقص رقصة فولكلورية مبتذلة . دعوتها إلى مائدتى فلم تعرفنى بادئ الأمر ثم اعتذرت بحالها يوم التعارف . وسرعان ما قالت إنها انتظرت مقدمى طويلا فاعتذرت بضيق الوقت وكثرة المشاغل . عرفت أن اسمها صفية بركات والله أعلم باسمها الحقيقى وهى أجمل من المدرسة ولكن يعيبها ميل إلى البدانة ، وتستقر فى وجهها الملىء نظرة محترفة . شربت كثيرا حتى أوشكت أن أفقد الوعى ثم دعوتها إلى سيارتى ومضيت بها إلى شارع الليدو بالأزاريطة ، ولما هممت بمصاحبتها اعتذرت بعذر قهرى فرجعت إلى البنسيون وأنا من السكر وسوء المآل فى حال .

البقيت وأنا ذاهب إلى حجرى بزهرة وهى راجعة من الحمام فى قميص النوم . اعترضت سبيلها مفتوح الذراعين . توقفت متوثبة . اقتربت منها فقالت بحزم :

— ابعد ..

أشرت بأصبعى إلى حجرى فقالت متوعدة :

— ابعد واذهب لحالك .

انقضضت عليها بالرغبة والسكر فضربتني بقبضتها فى صدرى ضربة مذهلة أشعلتنى بالغضب . جن جنوتى فلطمتها بوحشية . وصممت على الانقضاء حتى النهاية ولكن يدا وضعت على كفى وجاءنى

— ١٢٧ —

صوت سرحان اللاهث وهو يقول :

— حسنى .. أجننت ؟

دفعته بوحشية ولكنه شد على كتفى قائلاً :

— ادخل الحمام وضع إصبعك فى فمك .

استدرت نحوه ولطمته بشدة على غرة منه . تراجع وهو يهدر ثم لطمنى بقوة . وإذا بالمدام قادمة وهى تحبك حولها الروب متسائلة فى جزع :

— ماذا يحدث ؟!

ثم دخلت بينى وبين سرحان وهى تقول بغضب :

— لا ، هذا تخريب ، ولا يمكن أن أقبله .

الملائكة تسبح أو ترقص فى السقف . المطر يعزف فوق النوافذ وهدير الأمواج يصك الأذنين بانفجارات معركة محتدمة . أغمضت عيني مرة أخرى تحت لطحات الصداع . تأوّهت ثم لعنت كل شئ . ثم اكتشفت أننى نمت بقية الليل بالبدلة والمعطف والحذاء . وانهالت على ذكريات الليلة الماضية فلعنت كل شئ .

وجاءت المدام بعد أن أذنت لها بالدخول . وقفت تنظر إلى وأنا أترشح متثاقلاً متكاسلاً إلى الورا لأجلس مستنداً إلى رأس الفراش ، وقالت :

— تأخرت عن موعدك ؟

— ١٢٨ —

ثم غاصت في المقعد الكبير وهى تقول فى عتاب :

— ها هى عاقبة السكر الشديد .

تلاقت عينانا فابتسمت وقالت :

— إنك أعز من عندى ولكن لا تعد للسكر .

رفعت عينى إلى السقف المزركش بصور الملائكة وتمتت :

— إلى آسف .

ثم بعد فترة صمت :

— يجب أن أعتذر لزهرة .

— حسن ولكن عدنى بأن تسلك السلوك اللائق بأسرتك .

— اعتذرى عني لزهرة حتى أعتذر لها بنفسى .

وقد انقطع ما بينى وبين سرحان أما زهرة فصالحتها بعد إباء وتمنع .

ولا أنكر أن مخاصمة سرحان قد خلقت فراغا فى نفسى . الآخر —

منصور باهى — لا أكاد أعرفه ، ولا علاقة لى به سوى كلمات عابرة

نتبادلها على مائدة الإفطار فلا يبقى منها فى الذاكرة شىء . إننا نتبادل —

بلا شك — كراهية صامتة . وإنى أحتقر انطواءه وغروره وأنوثته وما

يحلى به نفسه من أدب ظاهرى رخيص . وقد سمعته مرة فى الراديو فهالنى

صوته — الكاذب مثله — الذى تحسبه صادرا عن فارس خطيب .

ومن عجب أنه لم تنشأ مودة بينه وبين أحد سوى قلاوون الصحافة بما

جعلنى أقطع بأن العجوز الأعزب لوطى سابق !

يحسن لى ألا أغادر الحجرة !. ولكن ثمة حادث سعيد يقع فى الخارج . فى حجرة البحيرى ١٩. أجل . مناقرة .. بل مشاجرة .. بل معركة .. بين روميو البحيرى وجولييت البحيرية .. ما معنى ذلك ؟ هل طالبته بإصلاح غلطته ؟. هل رام التملص والهرب كما فعل مع صفية ؟. إنه لأمر بالغ اللذة ولكن يحسن لى ألا أغادر الحجرة . أين كانت تختبئ جميع تلك المسرات ؟. فريكيكو انتبه جيدا واستمتع باللحظة البديعة .
وصاح الصوت الرنان :

— أنا حر .. أتزوج بمن أشاء .. سأزوج من علية .

يا سيد يا بدوى !. علية !. الأستاذة ؟. هل لى الدعوة لزيارة بيتها ؟. هل تحول من التلميذة إلى الأستاذة ؟. اشهد يا فريكيكو . أى يوم بهيج يا إسكندرية . لتحيا الثورة . ولتحيا قوانين يوليو . ها هو صوت المدام يرطن بالعربية . وها هو صوت المذيع الهمام بلحمه ودمه ، أخيرا تنازل بالاهتمام بشئون الرعية . وسيجد ولا شك حلا لهذه المشكلة الريفية . يا أهلا بالمعارك . فريكيكو .. يجب أن تتحرك . احذر أن تسبقك الأحداث .

وقد سمعت القصة مرة أخرى على رابعة المدام . وقالت لى فى الختام :

— لقد طردته ، ما كان يجب أن يقيم بيننا يوما واحدا !

أنيت على شهادتها ، ثم سألت عن زهرة فقالت بأسف :

— معتكفة فى حجرتها متوعدة .

أجل . القصة القديمة . المتجددة مثل فصول السنة . وقد هنا
البحيرى بالطرد . فاز بترقية إلى الدور الخامس . ولا يدرى أحد أين
ينتهى به الطريق .

وقالت المدام :

— إن صاحب الميرامار يفكر جديا فى بيعها .

فقلت بثقة :

— إنى على استعداد لمفاوضته .

وغادرت البنسيون مدفوعا برغبة حامية فى مسح الإسكندرية
بالطول والعرض .

فريكيكو .. لا تلمنى ..

لأول مرة أراها منزهة منسحقة . شحب لونها الخمرى وفقدت
عينها العسلتان الرونق والبريق . صبت لى الشاى وهمت بالانصراف
فرجوتها أن تبقى . كان الهواء يزأر فى هبات متقطعة ، وجو الحجرة
القائم يشى بتجمع السحب .

— زهرة .. الدنيا مليئة بالسفالات ولكنها لا تخلو من خير ..

لم بيد عليها أنها تهتم بالإصغاء إلى أو أنها تهتم بأى شىء .

— انظرى ماذا فعلت أنا ، ضاق بى العيش بين أهلى فى طنطا فهاجرت

إلى الإسكندرية .

لم تنبس ولا دبت فيها نسمة اهتمام .
 — أقول لك إنه لا حزن يدوم ولا فرح ، وأن على الإنسان أن يجد طريقه ، وإذا ساقه الحظ إلى طريق مسدودة فعليه أن يتحول إلى أخرى .
 — كل شيء ظيب ، لست آسفة على شيء .
 — بل أنت حزينة ، حزينة جدا يا زهرة ، ولك حق ، ولكن عليك أن تختارى النجاة ، هذا الاختيار نصف النجاة إن لم يكن النجاة كلها .
 قاومت التأثير بإرادة جبارة طبعت وجهها بطابع دميم عابر ،
 فقلت :

— أصغى إلى ، إليك اقتراحا ، لا تبتي فيه برأى الآن ، ولكن فكرى فيه على مهل .

وتريثت لحظات ثم قلت :
 — عما قريب سيكون لدى عمل .
 تلملت ، فقلت :

— ستجدين عندى إذا شئت وظيفة محترمة !
 ارتسم سوء الظن في عينيها فقلت :
 — هذا المكان لا يصلح لك .. بنت محترمة بين أشكال وألوان من مريدى اللهو والتسلية ، من يقر ذلك ؟
 لم تأخذ كلمة من قولى مأخذ الجد ، ذلك واضح جدا ، فقلت :
 — ستكونين عندى فى حصن .. عمل شريف وحياة ممتازة

— ١٣٢ —

غمغمت بما لم أسمع ثم حملت الصينية وذهبت .
غضبت . عليها وعلى نفسى غضبت لحد المقت . شهوات المحرومين
أعمتها عن حقارتها . ملعونة الأرض التى أنبتت فى طينها . وقلت بذلة
ومرارة :

فريكيكو .. لا تلمنى ..

* * *

سهرت بين الجدران الحمراء الكايبية فى الجنفواز . دعتنى صفية إلى
المبيت فى بيتها فلبيت . عرضت همومى للمناقشة وأنا سكران تماما . ولما
جاء ذكر المشروع وثب صوتها قائلا :

— جاء الفرج !

ثم قالت وهى تشعل سيجارة :

— الجنفواز .. صاحبه يرغب فى بيعه .

فقلت بلسان مخمور :

— ولكنه حقير كتيب !

— فكر فى موقعه الممتاز .. ممكن أن يصير ملهى ومطعما ممتازا ! .

وأكدت أنه يدر ربحا كثيرا وهو بحالته الراهنة وتنبأت له بمزيد من

النجاح إذا جدد . قالت :

— أنت ابن ناس ، وسيضع البوليس ذلك فى اعتباره ، وعندى خبرة

لا حد لها ، الصيف مضمون ، وبقية العام مضمونة كذلك بفضل

— ١٣٣ —

اليبيين الذين يفدون علينا محملين بنقود البترول .

قلت وكأني في حلم :

— رتبى لى مقابلة مع الخواجا .

— فى أقرب فرصة وسوف أختص أنا بالجانب النسائي .

— اتفقنا .

قبلتنى وهى تتساءل :

— لم لا تجيء للإقامة معى ؟

— فكرة ، ولكن يجب أن تعرفينى على حقيقتى من أجل تعاون

دائم ، أنا لا أعرف ذلك الشيء الذى تسمونه الحب .

* * *

حوالى العاشرة صباحا عدت إلى البنسيون . التقيت بسرحان

البحيرى فى مدخل العمارة ، تجاهلته كما تجاهلنى ووقفنا ننتظر هبوط

المصعد وأنا أقول لنفسى لعله جاء لزيارة آل عروسه . وفجأة التفت

نحوى وقال :

— إنك كنت السبب فيما بينى وبين محمود أبو العباس !

تجاهلته تماما كأننى لم أسمع صوتا ، فاستمر يقول :

— لقد اعترف لى بذلك .

ولما أصررت على تجاهله فى احتقار وبرود قال بعصية :

— على أى حال فقد خلا سلوكك من شهامة الرجال .

— ١٣٤ —

تحولت إليه بغضب صائحا :

— اخرس يا ابن الكلب !

وسرعان ما تبادلنا الضربات حتى جاء البواب ورافق له فخلصوا

بيننا . توقف الضرب وبدأ السباب . حتى هتف :

— سأؤدبك .. انتظرنى .

فهتفت بدورى :

— تعال لأزيمحك من حياتك القدرة .

* * *

في مجلس الأصيل حول الراديو وجدت المدام وطلبة بك ، فقالت لى

المدام :

— اشترك معنا في التفكير ، كيف نقضى ليلة رأس السنة ؟

ثم أشارت إلى طلبة بك وقالت :

— من رأيه أن نسهو في المونسنيير ولكن عامر بك يفضل البقاء هنا ؟

— أين عامر بك ؟

— إنه معتكف ، عنده برد .

— دعيه في اعتكافه ، ولنذهب إلى المونسنيير ، يجب أن نلهو بعنف

حتى الصباح !

وبعد صمت قليل قلت لها :

— أخيرا تحقق المشروع !



لم لا تجيء للإقامة معي ؟

— ١٣٦ —

وقصصت عليها الخبر حتى عكس وجهها خيبة أمل واضحة ، ثم
قالت :

— لا تتسرع .. يجب أن تفكر .

— كفاني تفكير .

ثم صرحت قائلة بعد تردد :

— مقهى الميرامار أفضل .. وإنى أفكر جديا في مشاركتك .

فقلت ضاحكا :

— ربما فكرت في التوسع مستقبلا .

وانبعثت من أعماق رغبة جامحة في الاستمتاع لأقصى حد بليلة رأس
السنة الجديدة .

وقد تعرفت بصاحب الجنفواز في نفس الليلة في حجرة مكتبه
بالمقهى . وتم الاتفاق على البيع من حيث المبدأ ، ثم دعانى إلى سهرة في
مسكنه بكامب شيزار بعد موعد الإغلاق . وشهدت صفية السهرة
واشتركت في مناقشة التفاصيل . وجاء ذكر لليلة رأس السنة فاتفقنا
أيضا على الاحتفال بها معا في الجنفواز على أن نكمل السهرة في بيت
الخوaja أو في أى مكان آخر ، فهنأت نفسى على الخلاص من سهرة
العجائز .

وفي صباح اليوم التالى لاحظت أن حجرة الإفطار تطالعنى بوجه

غريب . أجل كان قلاوون الصحافة معتكفا في حجرته ما يزال ، ولكن منصور باهى لم يفارق حجرته أيضا ، ولم أر أثرا لزهرة . وقرأت في وجهى المدام وطلبة بك وجوما ينذر بالشر ، وإذا بالرجل يقول :

— أما علمت بالخبر ؟

رمقته بنظرة متسائلة فقال :

— لقد عثر على سرحان البحرى جثة هامدة في طريق البالما ..

لبثت لحظات ذاهلا قبل أن يستقر الخبر في وعيى وإدراكى . واكتسحني شعور من الانزعاج والإشفاق ، والقلق حيال طبيعة الموت الغامضة المقتحمة . وسألت :

— ميتا ؟

— بل قتيلا .

— ولكن .

فقاطعتنى المدام :

— اقرأ الجريدة ، إنه خبر مزعج ، وقلبي يحدثنى بمتاعب كثيرة .

تذكرت المعركة الأخيرة أمام المصعد فامتعضت نفسى . وخشيت أن تمتد إلى المتاعب التى تنبأت بها المدام . وسألت وأنا أدرك سخف السؤال وعمقه :

— ترى من يكون القاتل ؟

فقال المدام :

— ١٣٨ —

— هذا هو السؤال طبعاً .

وقال طلبة مرزوق :

— وعندما يسألون عن أعدائه ١٩٠٠

أجبت وقد استعدت شيئاً من روح السخرية :

— في الحق لم يكن له صديق بيننا !

فقال طلبة مرزوق :

— وهل يكون له أعداء آخرون .

— ستعرف الحقيقة عاجلاً أو آجلاً .

وسألت عن زهرة فأجابت المدام :

— في حجرتها على أسوأ حال ..

أفقت من وقع الخبر فرددت قائلاً :

— لتكن مشيئة الله . .

كان في نيتي أن أخبر المدام بما استقر عليه رأيي من الانتقال من
البنسيون ولكنني أجلت ذلك إلى وقت آخر . ولما هممت بالخروج قال
لي طلبة بك :

— محتمل أن ندعى جميعاً لسماع أقوالنا .

فقلت وأنا أمضى :

— فليدعنا من يشاء .

صممت على غسل رأسي بجولة من جولات الانطلاقة في أنحاء

— ١٣٩ —

الإسكندرية . كانت السحب البيضاء دانية يقطر منها لون رائق ،
والهواء خفيفا سريعا لاذعا .

إنه آخر يوم في السنة وقد تضاعفت رغبتى في إحياء ليلة جنونية حتى
الصباح .

ولقد وضحت لى معالم الطريق ، فليمت من يموت وليعيش من
يعيش .

دفعت السيارة وأنا أقول لصورتي في المرآة الصغيرة :
فريكيكو .. لا تلمنى ..

R. M. L.



٣

منصور باهى

قضى على بالسجن فى الإسكندرية وبأن أمضى العمر فى انتحال
الأعدار .

قلت ذلك لأخى وأنا أودعه ، ثم ذهبت رأسا إلى بنسيون ميرانمار .
فتحت شراعة الباب عن وجه عجوز ذى طابع أنيق متعال ، رغم الكبر
ورغم المهنة ، فسألته :

— مدام ماريانا ؟

أجابت بالإيجاب فقلت :

— منصور باهى ..

فتحت لى الباب مرحبة وهى تقول :

— أهلا .. حدثنى أخوك بالتليفون .. اعتبر نفسك فى بيتك .

— ١٤٤ —

انتظرت عند الباب حتى وصل البواب حاملا الحقيبتين ، ثم دعتنى
إلى الجلوس وجلست هى على كنية تحت تمثال للعذراء :
— أخوك ضابط بوليس عظيم ، كان ينزل عندى قبل أن يتزوج ،
وقد أقام فى الإسكندرية عمرا وها هو ينتقل إلى القاهرة ..
تبادلنا نظرات مودة وهى تتفحصنى بدقة وعناية ثم سألتنى :

— كنت تقيم معه ؟

— نعم .

— طالب ؟ .. موظف ؟

— مذيع فى محطة الإسكندرية .

— ولكنك أصلا من القاهرة ؟

— نعم ..

— اعتبر نفسك فى بيتك ولا تحدثنى عن الإيجار ..

ضحكت مستكبرا ، ولكنى شعرت أنها على استعداد لقبولى بالهجان
لو أردت . حسن ، العفن يجرى مع الهواء ولعله يصدر أصلا من ذاقى
أنا .

— وأى مدة ستقيم معنا ؟

— غير محدودة ..

— سنتفق على أجره مناسبة ولن أطالب برفعها فى الصيف ..

— شكرا ، لقد أرشدنى أخى إلى ما يجب عمله وسوف أدفع فى

المصيف كالمصيفين ..

انتقلت بلباقة إلى موضوع آخر فتساءلت :

— أعزب ؟

— نعم .

— متى تفكر في الزواج ؟

— ليس الآن على أى حال .

فضحكت عاليا وهي تسأل :

— فيم تفكر إذن ؟

جارتها في الضحك بلا روح . ودق الجرس فقامت ففتحت الباب

فدخلت فتاة حاملة لفة كبيرة من البقالة أو غيرها ثم مضت إلى الداخل .

من نظرة أدركت أنها خادمة وأنها جميلة . ثم عرفت — والمدام

تخاطبها — أن اسمها زهرة . وهي في سن طالبة جامعية وكان ينبغي أن

تكون كذلك .

قادتني المدام إلى إحدى الحجرتين المطلتين على البحر وهي تقول :

— هذا الجانب غير مناسب للشتاء ولكنها الحجرة الوحيدة الخالية ..

فقلت بلا اكتراث :

— إني أحب الشتاء ..

وقفت في الشرفة وحيدا . ترامى البحر تحتى إلى غير نهاية ، ينبسط

(مرامار)

في زرقه صافية بديعة ، وتلعب أمواجه الهادئة بآلئ الشمس . غمرتني ريح خفيفة في ملاطفة منعشة ولم يكن في السماء إلا سحببات متفرقة . كاد يغلبني الحزن ولكن سمعت حركة خفيفة في الحجرة فالتفت مستطلعا فرأيت زهرة وهي تفرش السرير بالملاءات والأغطية . عملت بهمة دون أن تنظر نحوى فتمليتها على مهل وسرعان ما أكبرت ملاحظتها الريفية الباهرة . وقلت راغبا في إنشاء علاقة ومودة :

— أشكرك يا زهرة .

فابتسمت إليّ ابتسامة تشرح الصدر ، فطلبت فنجال قهوة فجاءتني به بعد دقائق معدودة . وقلت :

— انتظري من فضلك حتى أفرغ ..

وضعت طبق الفنجال على سور الشرفة ومضيت أحتسيه فاقتربت حتى وقفت عند العتبة رائية إلى البحر فسألتها :

— تحبين الطبيعة ؟

لم تجب . ولكنها لم تفهم . ترى ماذا يشغل بالها ؟ . ولكن لا زيب أنها بالغزيرة المرتوية من الأرض تتحفز للعمل الأول الذي تهتم به الطبيعة الخلافة . قلت :

— لدى في الحقيقة الكبرى كتب ولا صوان لها في الحجرة .

استعرضت قطع الأثاث بعينها ثم قالت ببساطة :

— دعها في الحقيقة .

— ١٤٧ —

ابتسمت ثم سألتها :

— تعملين هنا من قديم ؟

— كلا .

— والمكان أهو مناسب لراحتك ؟

— نعم .

— ألا يضايقك الرجال الذين يجيئون ويذهبون ؟

هزت منكبيها ولم تجب بلا أو نعم فقلت :

— إنهم مخيفون أحيانا ، أليس كذلك ؟

تناولت الفنجال ثم قالت وهى تهم بالذهاب :

— أنا لا أخاف !

أعجبت بثقتها بنفسها . وإذا بى أعانى إحساسا بالحسرة . وكعادتي جعلت أفكر فيما هو كائن وما ينبغى أن يكون . وتهددنى الحزن مرة أخرى .

تفقدت قطع الأثاث ثم قر عزمى على شراء مكتبة صغيرة للكتب ، أما التراييزة المستديرة القائمة بين صوان الملابس والشيزلونج فصالحة للكتابة .

لبثت فى دار الإذاعة بضع ساعات لتسجيل البرنامج الأسبوعى . تناولت الغداء فى مطعم بترو بشارع صفية زغلول . جلست فى على

كيفك لأحتسى فنجالا من القهوة . مضيت أتسلى بمشاهدة الميدان
المغطى بمظلة من السحب . وقد انتشرت معاطف المطر المطوية على
الأذرع . وفجأة دق قلبي عندما مر أمامي ذاك الرجل . فوزى ! .
انحنيت إلى الأمام قليلا حتى أوشك جبينى أن يمس الزجاج لأتأكد من
هويته . كلا ، ليس بفوزى ، ليس بفوزى على وجه اليقين . ولكن ما
أعظم التماثل بينهما ودرية حضرت بالتداعى كما يقال . وهى تحضر بلا
قانون إلا قانونها الأزل . أجل درية . ماذا لو كان هو فوزى حقا ؟ .
وماذا لو تلاقى الأعين ؟ . إذا رأيت صديقا حميما وجبت عليك
معانقته . وهو أيضا بمنزلة الأستاذ . لتكن معانقة حارة وإن أدمتك
الأشواك . وادعه إلى فنجال قهوة فبذلك تقضى آداب الضيافة .

— أهلا .. أهلا .. ماذا جاء بك إلى الإسكندرية فى هذا الوقت من

العام ؟

— زيارة عائلية !

هذا يعنى أنه جاء ليمارس نشاطا ولكنه يخفيه عنى كما يجدر به . على

أننى قلت :

— أتمنى لك إقامة دائمة .

— لم نرك منذ عامين ، وبالذقة منذ تخرجك .

— بلى ، فقد عينت فى محطة الإسكندرية كما تعلم !

— أعنى أنك هجرتنا تماما .

— ١٤٩ —

- بعض المتاعب .. أعنى صادفتنى بعض المتاعب .
- قد يكون من الحكمة ألا يستمر الإنسان فى عمل لا يناسبه .
- اجتاحتنى كبرياء عمياء فقلت :
- وقد لا يستمر فى العمل أيضا إذا كف عن الإيمان به .
- تمهل كعادته ليزن كلماته ثم قال :
- قيل إن أخاك ..
- قاطعته باستياء :
- لست قاصرا ..
- فضحك قائلا :
- أغضبتك ؟ .. معذرة ..

توترت أعصابى . درية . وتساقط رذاذ فتمنيت أن ينهل المطر ليخلو
الميدان من البشر . عزيزى . لا تصدق . قديما قال حكيم إننا قد نكذب
أحيانا لنقنع الآخرين بأننا صادقون . وعددت الحظ صديقى الخيف
فسألنى :

- ألم تعد تهتم بشيء ؟
- فضحكت . كادت تند عنى ضحكة . وقلت :
- ما دمت أحييا فلا بد أن أهتم بشيء .
- مثل ماذا ؟
- ألا ترى أننى خلقت ذقنى وأننى أحكمت عقد الكرافة ؟

فسألنى جادا :

— وماذا أيضا ؟

— هل شاهدت فيلم مترو الجديد ؟

ابتسم ثم قال :

— فكرة .. فلنشاهد فيلما رأسماليا !

زارتنى مدام ماريانا فى حجرتى زيارة مجاملة . ينقصك شىء ؟. أى خدمة ؟، كن صريحا ، كان أخوك صريحا وكان شهما بكل معنى الكلمة ، وهو قوى ضخيم عملاق ، أما أنت فدقيق متناسق ولكنك قوى أيضا ، اعتبر البنسيون بيتك . واعتبرنى صديقة ، صديقة بكل معنى الكلمة .

ولكنها لم تأت فى الحقيقة للمجاملة ، أو لم تكن المجاملة إلا وسيلة فحسب ، لقد جاءت أصلا للاعتراف ، أو لتحقيق الذات عن طريق شفوى . هكذا تطوعت برواية تاريخ حياتها ، نشأتها الناعمة المنعمة ، حبها وزواجها الأول من كابتن إنجليزى ، زواجها الثانى من ملك البطارخ وقصر الإبراهيمية ، ثم فترة الانحدار ، ولكن أى انحدار ١٩ ، كان بنسيون السادة ، الباشوات والبكوات ، أيام الحرب .

ودعتنى إلى البوح بأسرار حياتى ، طوفان من الأسئلة ، امرأة غريبة ومسلية ومرهقة ، امرأة عند الزوال ، لم أشهد لها وهى عروس

الصالونات ، ولكن يمكن تخيلها ، على ضوء الفاتنات والطغاة يمكن تخيلها ، ولكنى لم أعرفها إلا وهى خرابة أثرية تتعلق عشا بأذيال الحياة . وعلى مائدة الإفطار تعرفت بالنزلاء . أسرة متنافرة غريبة . وإنى لفى حاجة إلى تسلية . إذا تغلبت على ما يشدنى إلى الداخل فقد أنعم بصاحب أو بصديق . لم لا ؟ . لنطرح جانبا عامر وجدى وطلبة مرزوق فهما من جيل راحل . ولكن ماذا عن سرحان البحيرى وحسنى علام ؟ . فى عينى سرحان جاذبية فطرية وهو ودود فيما يبدو رغم صوته المزعج ولكن ماذا عن اهتماماته ؟ . أما الآخر .. حسنى علام .. فهو مثير للأعصاب ، هكذا يبدو لأول وهلة على الأقل ، متغطرس الصمت والتحفظ ، غاظنى بنيانه المحكم ورأسه الكبير المرتفع وتربعه على كرسيه كأنه حاتم ، أجل حاتم ولكن بلا ولاية وبلا محتوى ، ولعله لا يتبسط فى الحديث مع أحد إلا إذا وثق من أنه أتفه منه . وقلت لنفسى . على الذى يرضى بهجر الدير أن يوطن النفس على معاشرة الأراذل . وكالعادة تملكنى الانطواء حيال الغرباء . وقلت سيقولون .. سيظنون . وقديما خسرت بذلك الفرض حياى .

* * *

دهشت عندما رأيت سرحان البحيرى داخلا على فى حجرة مكتبى بالإذاعة . تألق وجهه ببشاشة صديق قديم ، ثم صافحنى بحرارة وهو يقول :

— ١٥٢ —

- كنت مارا تحت الإذاعة فقلت أسلم وأشرب القهوة !
رحبت به ، وطلبت القهوة ، فقال :
— سأطالبك يوما بإطلاعى على أسرار الإذاعة !
بكل سرور يا رجل المصطبة العتيدة التى لم أنعم بالجلوس عليها
وبإيجاز حدثنى عن عمله بشركة الإسكندرية وعضوية مجلس الإدا
وعضوية الوحدة الأساسية . وقلت له :
— يا له من حماس جميل يعد درسا للمتواكلين .
فنظر إلى بامعان ، ثم قال :
— إنه طريقنا للمشاركة فى بناء عالمنا الجديد .
— آمنت بالاشتراكية من قبل الثورة ؟
— الحق أنى آمنت بها مع الثورة .
ودغدغنى ميل إلى مناقشة إيمانه ولكننى كبحتة . وجرى الحديث
إلى البنسيون فقال :
— إنه أسرة طريفة لا يشبع الإنسان منها .
فسألته بعد تردد :
— وحسنى علام ؟
— شاب ظريف هو الآخر .
— يبدو كأنه أبو الهول .
— فى الظاهر فقط ، ولكنه ظريف ، وذو استعداد أصيل للعريضة !

ضحكنا معا . لم يدرك أنه يعرفني بنفسه أكثر مما يعرفني بالآخر .
وعاد يقول محذرا :

— إنه من الأعيان ، بلا وظيفة ، فيمكن القول إنه بلا شهادة ، خذ
بالك من هذه النقطة ..

ثم واصل بلهجته الحكيمة المحذرة :
— إنه يملك مائة فدان ، فهو يخذل في الخطوط الأمامية ، ولا يحمل
شهادة علمية ، وعليك أن تفهم البقية ..
— ولماذا أقام في الإسكندرية ؟

— إنه ولد حكيم ، يبحث عن مشروع تجارى ناجح !
فقلت ضاحكا :

— عليه أن يغير سحتته المتعجرفة وإلا هرب الزبائن .
ثم خطر لي أن أسأله عما يدعوه إلى الإقامة في بنسبون رغم أنه قديم عهد
بالإسكندرية ، فتفكر قليلا ثم قال :
— فضلت بنسبوننا عامرا بالناس عن شقة موحشة داخل البلد !

ليلة أم كلثوم ، ليلة الخمر والطرب ، فيها تزحزح النقاب عن أشياء
من خبايا النفوس .

إلى سرحان البحيرى يعود أكبر الفضل في إحيائها ولعله تكلف أقل
نصيب من نفقاتها !. استرقت نظرات إلى طلبة مرزوق لم يقرأ معانيها

أحد . أجل ، عاودتنى ذكريات حميمة ، أحلام دموية ، صراعات طبقية ، كتب وتجمعات ، بنیان من الأفكار راسخ الأساس . راعنى ترهله وانكساره . وحرركات شذقيه ، وقبوعه فوق مقعده فى استسلام ، وتودده إلى الثورة بلا إيمان ، وكأنه لم يكن من السلالة التى شيدت قلاعها من اللحم والدماء . أخيرا جاء دوره ليمارس النفاق بعد أن خلف مجده المتهوم الذابل أمة من المنافقين . وما حسنى إلا جناح من النسر المهيض ، لكنه جناح ما زال يرفرف ولا يخلو من قدرة على الطيران .

— أقول إن تلك التناقضات قد محيت تماما .
— كلا .. إنها أزيحت بتناقضات جديدة ، وسوف تثبت لك الأيام ..

أما سرحان البحيرى فسرى فينا كالروح بمرح حار لا يفتر وهو طيب القلب ، ومخلص ، لم لا ، طموح بلا ريب ، إنه التفسير المادى للثورة ، وسرعان ما تبين لى أن عامر وجدى هو أعظم الحاضرين فتنة وأحقهم بالتقدير والحب . عرفت أنه عامر وجدى الذى راجعت العديد من مقالاته عند إعدادى لبرنامج « أجيال من الثورة » . لقد استولت على أفكاره المتطورة بل والمتناقضة ، وسحرنى أسلوبه الذى بدأ

بالسجع وانتهى إلى بساطة نسبية لا تخلو من فخامة وجزالة . وقد سر
باطلاعى على مقالاته سرورا دل على عمق إحساسه بالزوال والنسيان
والجحود فأثر ذلك فى نفسى تأثيرا حادا محزنا . وقبض على القشة التى
ألقيتها إليه فى الماء فمضى يقص على تاريخه الطويل ، جهاده المستمر ،
التيارات التى لاطمته ، والأبطال الذين آمن بهم .

— وسعد زغلول ؟.. لقد عبده الجيل السابق عبادة ..
— ما قيمة المعبودات القديمة !، لقد طعن الرجل الثورة الحقيقية وهى
فى مهدها ..

ولكن ما بال طلبة مرزوق يرمقنى بحذر ؟. لقد ضبطت عينيه
المرتابتين الكارهتين فى مرآة المشجب . لا يهم . ومثله خليك بأن يخاف
خياله . وقد صببت له كأسا فشكرنى فسألته عن رأيه فى نظرات عامر
وجدى التاريخية ولكنه قال كالمعتذر :

— ما مضى قد مضى ، دعنا نتهيا للسمع .
أعجبت بزهرة وهى تقوم على خدمتنا ولكنها لا تكاد تبتسم إلا
للنادر من نكاتنا ، وتجلس عند البرافان لتراقبنا من بعيد بعينين جميلتين
غير مبينتين . وقد سألتها حسنى علام وهى تقدم له شيئا :
— وأنت يا زهرة .. هل تحبين الثورة ؟

فتراجعت في حياء عن دائرة المعربدين ولكن المدام أجابت عنها إجابة شافية . وقد بدا أنه يحییها بسؤاله ويدعوها إلى المشاركة في الحديث ولكنی لمحت في أعماقه ضيقا يداريه فقلت :

— إنها تجبها بالفطرة !

ولكنه لم يسمعنى أو أنه — الوغد — تجاهلنى . وقد اختفى قبل نهاية السهرة ، وأخبرت زهرة بأنه غادر البنسيون ، وقد أعجبت بعامر وجدى الذى ظل ساهرا يسمع ويطرب حتى مطلع الفجر . وسألته وقد نهضنا للنوم :

— هل سمعت في ماضيك صوتا كهذا الصوت ؟

فأجاب باسم :

— إنه الشئ الوحيد الذى لا نظير له في الماضى ..

رجوتها أن تجلس ولكنها لبثت واقفة مستندة إلى صوان الملابس، تنظر معى إلى الأفق الملبد بالغيوم من زجاج الشرفة المغلق، وتنتظر أن أفرغ من احتساء الشاي. وكنت أعطيها قطعة من البسكوت الذى أحتفظ بقدر منه فتقبلها عربونا لصداقة نامية. إن قلبها الأبيض يشعر بمودتى واحترامى وإعجابى وكنت بذلك سعيدا. وتساقط رذاذ، فانسابت قطراته على الزجاج فاهتزت صورة العالم الخارجى. سألتها عن بلديها فأجابت. خمنت السبب الذى اقتلعهما من أرضها ، ولكنى قلت:

— ١٥٧ —

— لو بقيت في قريتك لسارع إليك ابن الحلال .
فقصت على قصة ضارية ، عن الجد والزواج العجوز .. ثم قالت :
— وهربت ..

انزعجت للخبر فقلت :
— ولكنك لن تسلمى من الألسنة .
فقالت باستهانة :

— إنه خير مما هربت منه !
أعجبت بها لحد الإكبار ولكن أشجنتى وحدثها ، غير أنها كانت
تقف مليئة بالثقة كمعدن غير قابل للكسر . وكان الرذاذ قد نقش
الزجاج بالغيش فاخترفى العالم أو كاد .

* * *

قنبلة ؟ . صاروخ ؟ ، فكرة جنونية . كلا ، إنها سيارة ، الأحق ،
يا للشيطان إنه حسنى علام ، ماذا يدفعه إلى الطيران ؟ ، سر لا يعلمه إلا
هو ، كلا .. فألى جانبه تجلس فتاة ، كأنها صونيا ، أمى صونيا ،
صونيا أو غيرها فليذهب إلى الجحيم .

وما كدت أجلس في مكتبي حتى لحق بى زميلى وهو يقول :
— قبض على أصحابك أمس !
غشيتنى لحظة غيبوبة . خجلت من أن أعلق بكلمة واحدة فقال :
— والسبب فيما يقال ..

— ١٥٨ —

قاطعته بحدة :

— لا أهمية لذلك .

— ثمة همس عن ..

— قلت لا أهمية لذلك ..

اعتمد على مكتبي بذراعيه الممدودتين وقال :

— كان أخوك حكيما .

فقلت وأنا أنفخ :

— نعم الحكيم أخى ..

وقلت لنفسي لا شك أن حسنى علام قد بلغ الآن أقصى الأرض ،

وأن صونيا ترتعد من الخوف واللذة .

* * *

— ولا كلمة ، سأقتلعك من الوكر !

— ولكنى لم أعد طفلا ..

— ألم تسرع بأملك إلى القبر ؟

— اتفقنا على ألا نذكر ذلك الماضى البعيد .

— ولكنى أراه حاضرا ، ستذهب معى إلى الإسكندرية ولو

اضطرت إلى أخذك بالقوة .

— عاملنى كرجل من فضلك .

— إنك ساذج ، أنظننا غافلين ، لسنا غافلين .

— ١٥٩ —

وتفرس في وجهي بقوة ثم قال :
— إنك غير جاهل ، ماذا تحسبهم ؟ ، أبطالا .. هه ؟ ، إني أعرفهم
خيرا منك ، وستذهب معي طوعا أو كرها ..

* * *

فتحت لي الباب . كنت خافق القلب جاف الحلق مشئت الفكر
برز لي وجهها من الدهليز القائم أبيض شاحبا . حدثت في بعينين
جامدتين ، لم تعرفني أول الأمر ، ثم اتسعت عيناها لوقع مفاجأة غير
متوقعة ، وهمست :

— أستاذ منصور !

تنحت جانبا فدخلت وأنا أقول :

— كيف حالك يا درية ؟

تقدمتني إلى حجرة الجلوس ، وقد أضفى منظرها الحزين على كل
شيء كآبة وتجهما . جلسنا على مقعدين متقاربين ، وعلى الحائط أمامنا
صورتها تطل علينا من إطار أسود وهو يسد إلينا الفوتوغرافيا كأنما
يلتقط لنا صورة ، تبادلنا نظرات صامته حزينة ، ثم سألت :

— متى جئت إلى القاهرة ؟

— جئت من المحطة رأسا .

— إذن علمت .. ؟

— أجل ، في مكنتي ، ثم أخذت ديزل الساعة الثانية مساء .

— ١٦٠ —

ونظرت إلى صورته وأنا أتشمم رائحة التبغ الذى يدخنه وهى
مستكنة ما تزال فى جو الحجرة ، ثم سألت :

— هل قبض عليهم جميعا ؟

— أظن ذلك .

— وأين ذهبوا بهم ؟

— لا أدرى .

تشعث شعرها فى إهمال ، وشجبت بشرتها البيضاء ، وضغضغت
عينها نظرة ذابلة مسهدة .

— وأنت ؟

— كما ترى .

وحيدة بلا مورد . كان أستاذا مساعدا بكلية الاقتصاد ولكن بلا
مدخرات . كل شىء واضح وضوح الكآبة التى تخنق المكان كله .
— درية ، أنت زميلة قديمة ، وهو صديق ، أعز صديق رغم كل
شىء .

ثم استجمعت شجاعتي وواصلت :

— أنا موظف ، ولى إيراد لا بأس به أيضا ، ولست مسئولا عن أحد

كما تعلمين .

حركت رأسها فى ضيق . تمتت :

— ولكنك تعلم أننى لا ..



حرکت رأسها فی ضیق وتمتت : ولكنك تعلم أنني لا ..

(میرامار)

قاطعتها بجماعة :

— لا أظنك ترفضين مساعدة تافهة من صديق قديم .

— الطبيعى أن أجد عملا مناسباً .

— عندما يتيسر ذلك ، ولن يتيسر قبل مضى وقت .

ما زالت الحجرة مطبوعة بروحه . كعهدي بها في الأيام الخالية
الكتبة الاستديو ومكتبها العامرة ، المسجل ، الجرامفون ، التليفزيون
والراديو ، الفوتوغرافيا والأفلام وألبوم الصور ، ولكن أين الصورة
التي جمعت بيننا في أوبرج الفيوم ؟. لا شك أنه رمى بها في الحضور
الغضب . وكانت عينانا تلتقيان ثم تنفصلان في حذر ، ولا شك أن
مشاعر متجانسة طاردتنا ، وأن ذكريات مشتركة ناوشتنا ، وأن
الماضى والحاضر والمستقبل يتمثل في صورة طريق مجهول . وسألتها :

— لديك خطة ؟

— لم أجمع أفكارى بعد .

ترددت قليلاً ثم سألت :

— ألم تفكرى في الكتابة إلى ؟

ترددت قليلاً ثم أجابت :

— كلا .

— ولكن احتمال حضورى لا شك خطر ببالك .

لم تجب . قامت فغابت دقائق ثم رجعت بالشئ ، وأشعلنا

— ١٦٣ —

سيجارتين . خيل إلى أنى أسترجع رائحة قديمة مفتقدة . وكان لا بد مما

ليس منه بد فقلت وعذاباتي القديمة تجتاحني :

— أظنك علمت بمحاولاتي الفاشلة في العودة ؟

لازمت الصمت فقلت :

— لم ألق أى تشجيع ، وهذا أخف تعبير يمكن اختياره .

تمتت برجاء :

— لننس الماضي .

— حتى فوزى نفسه تجاهلني !

— قلت لننس الماضي .

— كلا يا درية .

ثم قلت بامتعاض وألم :

— ولست أجهل ما قيل عني ، قالوا إننى أسعى للعودة لأعمل عينا

لأخى !

هتفت بتبرم وضيق :

— ألا يكفيني ما بي من حزن !

اعتذرت إليها بنظرة ذليلة وقلت :

— درية إنك تدركين شعورى تماما .

— إني ممتنة .

فهتفت كالملل دوغ :

— ١٦٤ —

— أعنى شعورى بأننى كان يجب أن أكون معهم !

فقال بحزن :

— لا جدوى من تعذيب نفسك .

— أود .. أود أن أعرف رأيك فى بصرحة ؟

ساد الصمت فترة قصيرة مشحونة بالعذاب ثم تمتت :

— لقد استقبلتك فى بيتى ، أو إن شئت فى بيته ، وفى هذا الكفاية

تهددت بصوت مسموع . لم يطمئن قلبى تماما . وكنت على ثقة .

أنى سأرد إلى الجحيم كما كنت ، ولكن لم يكن الوقت مناسباً لتبرير
الأخطاء . وقلت :

— سأزورك بين حين وآخر ، وعليك أن تكتبى لى لدى أى

طارئ

أرهقنى السفر ذهاباً وإياباً فقررت البقاء فى البنسيون . انضمت
إلى الجالسين حول الراديو فى المدخل ، ومن حسن الحظ أنهم كانوا
أحب أهل الدار إلى نفسى : عامر وجدى والدمام وزهرة . شغلتنى
أفكارى عن الحديث حولى حتى سمعت الدمام وهى تقول لى :

— إنك دائماً غائب عنا بأفكارك !

فقال عامر وجدى وهو يرمقنى بمودة :

— ذاك شأن الأذكىاء !

— ١٦٥ —

وظل يرمقني بعينيه الغائمتين ثم تساءل :
— ألا تفكر في استخلاص مادة كتاب من براجمك الثقافية ؟
فقلت دون مبالاة بالحقيقة :
— إني أفكر في كتابه برنامج عن تاريخ الخيانة في مصر !
— الخيانة !.. ياله من موضوع غزير متشعب !
وضحك طويلا ثم عاد يقول :
— عليك أن ترجع إلى ، سأمدك بالمراجع والذكريات

* * *

— أنا أحبك ، وأنت تحبينني ، دعيني أكلمه .
— إنك مجنون !
— إنه عاقل ومعقول وسيفهمنا تماما ، وسيغفر لنا .
— لكنه يحبني ، ويعدك صديقه الأوحـد ، ألا تفهم ؟
— إنه يكره الزيف ، إني أفهمه تماما .

* * *

واستمر عامر وجدي قائلا :
— برنامج عن الخيانة ، ياله من برنامج ، ولكن احرص في النهاية على
أن تؤلف كتابا وإلا نسيتك الناس كما نسواي ، لم يبق من الذين لم يدونوا
أفكارهم إلا سقراط .
وكانت المدام تتابع أغنية يونانية طلبتها فيما يطلبه المستمعون ، أغنية

على لسان عذراء تعدد المزايا التي تتمناها في فتي الأحلام أو هكذا قالت
المدام . إن منظرها وهى تستمع إلى الأغنية مغمضة العينين من الطرب
منظر مؤثر حقا ، خلاصة مبكية مضحكة لحب الحياة .

وقال عامر وجدى :

— وقد خلد بفضل تلميذه أفلاطون . ولكن غريب أن رضى

بتجرع السم متجاهلا فرص الهرب !

فقلت بمرارة :

— أجل ، ورغم أنه لم يكن يعانى شعورا بالإثم أو الخطأ .

— وكم من أناس إذا قارنتهم بسقراط اقتنعت بأنهم لا يمكن أن يرجعوا

معه إلى أصل جنسى واحد !

فقلت بمرارة وجنون :

— أولئك هم الخونة .

ثم حقائق وثمة أساطير ، الحياة يا بنى محيرة حقا .

— ولكنك من جيل الإيمان ؟

فضحك وهو يقول :

— الإيمان .. الشك .. إنهما مثل النهار والليل .

— ماذا تعنى من فضلك ؟

فسكت لحظات ثم قال :

— أعنى أنهما لا ينفصلان . وأنت يا بنى من أى جيل ؟

فقلت بضجر :

— العبرة بما نعمل لا بما نفكر ، وإذن فأنا مجرد مشروع .

وضحكت المدام قائلة :

— نعمل .. نفكر .. ما هذا !؟

وضحك العجوز أيضا وقال :

— فى كثير من الأحيان يخيّل إلى المفكر المرهق أن أؤمن ما فى الوجود

يتلخص فى أكلة شهية وامرأة جميلة .

قهقهت المدام وقالت :

— برافو .. برافو .

وضحكت زهرة أيضا فسمعت ضحكها لأول مرة فانجابت عني

الهموم إلى حين . وأعقب ذلك دقائق صمت فتجلى صوت الهواء وهو

يدوى فى الخارج ويلطم الجدران فتصطك النوافذ المغلقة . وعادنى

القلنى والكآبة فقلت مخاطبا عامر وجدى :

— أن تؤمن وأن تعمل فهذا هو المثل الأعلى ، ألا تؤمن فذاك طريق

آخر اسمه الضياع ، أن تؤمن وتعجز عن العمل فهذا هو الجحيم .

— أجل، إنك لم تشهد سعد فى شيخوخته وهو يتحدى النفسى والموت.

نظرت إلى زهرة ، المنفية الوحيدة ، وهى تجلس مفعمة ثقة وأملا

فغبطتها ، بل حسدتها !.

زرت درية بعد مضي أسبوع من الزيارة الأولى . استعاد مسكنها
أناقته المعهودة ، وتبدت هي في مظهر لا تعوزه العناية ، ولكنى قرأت في
عينها السقم . أجل ، وحيدة وبلا عمل أو أمل ، قلت لها :
— أرجو ألا تضايقك زيارتى .

فقالت بصوت لم أتبين فيه معنى :
— على الأقل فهى تشعرنى بأننى ما زلت على قيد الحياة .
تقبض قلبى ألما . تخيلت الحال على حقيقتها الخشنة الجرداء . وددت
أن أعرب عن عواطفى ولكن الماضى عقل لسانى . واتفق رأينا على أن
فى العمل النجاة من السقم ولكن كيف ؟ . إنها تحمل ليسانس آداب فى
اللغات القديمة ولكن ثمة عقبات لا يستهان بها .

— لا تجبسى نفسك فى البيت .
— فكرت فى ذلك ولكنى لم أتحرك بعد .
— لو كان فى الإمكان أن أزورك كل يوم .
ابتسمت . تفكرت . ثم قالت :
— يحسن أن نتقابل خارج البيت !
لم أر تح لقولها ولكنى اقتنعت به فقلت :
— فكرة مقبولة !

وتم اللقاء الثالث فى حديقة الحيوان . طالعنى وجه الزمان الأول عدا
نظرة العين . بجماله ورونقه وإن خلا من روح المرح والبهجة . وسرنا

— ١٦٩ —

دقائق إلى جانب السور المطل على طريق الجامعة ، طريق ذكريات

مشتركة لا يمكن أن تنسى . وقالت :

— إنك تكلف نفسك ما لا يطاق .

— أنت لا تدريين كم أنى سعيد بذلك .

أكان أجدر بى أن أصرح بالسعادة المزعومة ؟. وعدت أقول :

— الوحدة يا درية ، إنها شر ما يبتلى به إنسان .

قلت ذلك بنبرة المجرب ، وربما عن قصد ، فقالت :

— لم أزر الحديقة منذ أيام الجامعة !

فقلت دون مبالاة بجملتها الاعتراضية :

— إنى وحيد أيضا ، وأعرف مذاق الوحدة .

بدت كالمحصرة . ضايقتنى ذلك وزاد عواطفى تعقيدا والتواء .

ورغم ذلك أوشك الفيضان أن يجرف السد . وعندما التقت عينانا خيل

إلى أنها جففت . وإذا بها تقول :

— يحزننى أننى أترىض على حين أنه .. هناك .

ولحظت وجومى فتساءلت :

— مالك ؟.

— لا أكاد أتحرر من الإحساس بالذنب .

— أخشى أن تجد فى صحبتى مصدرا للعباب .

— كلا . ولكن ذلك الإحساس الجهنمى يتغذى على اليأس .

— ١٧٠ —

— علينا أن نجد في اللقاء شيئاً من العزاء .

— واليأس يدفع للتهور ، ولأن يداوى المريض الداء بالداء !.

— ماذا تعنى ؟.

— أعنى .

ترددت قليلاً ثم واصلت :

— أعنى .. أن تعذرى حماقتى لو قلت لك يوماً تحت دفعة تيار

جارف إلى أحبك ، كما أحبتك في زماننا الأول .

وأفقت من تهورى . أى حماقة ، أى جنون ، ما أبغى ؟. كنت

مندفعاً وراء غاية محددة . كمن يلقي بنفسه في الماء ليطفئ ملابسه

المشتعلة . وقالت بعتاب :

— منصور !.

فتراجعت كمن تلقى لكمة شديدة ، وقلت بخذلان :

— لا أدري ماذا قلت ، ولا كيف قلته . ولكن ثقي من أننى لا يمكن

أن أسعى للسعادة !.

وقلت لنفسى وأنا أستقل الديزل « في الرسائل يجد الإنسان شجاعة

أكثر » .

استيقظت على ضوضاء وصخب .. أهو صوت يند عن الصراع

الذى يتلاطم في باطنى ؟. كلا .. هناك صراع من نوع آخر في

— ١٧١ —

البنسيون . غادرت حجرتي فرأيت المنظر الأخير من معركة . أدركت من آثارها المطبوعة على الوجوه أن سرحان وامرأة غريبة وزهرة كانوا أبطالها أو ضحاياها . ولكن من المرأة ؟ .. وما علاقة زهرة بالأمر كله ؟ .

وجاءتني زهرة بالشاي كالعادة ، فراحت تقص على الواقعة كما وقعت ، باندفاع امرأة وراء سرحان وهو عائد إلى البنسيون ، واشتباكها معه في عراق . وكيف جرت إلى العراق وهي تخلص بينهما . — ولكن من المرأة يا زهرة ؟ .

— لا أعرف .

— سمعت من المدام أنها كانت خطيبة لسرحان ؟
ترددت مليا ثم قالت :
— ربما .

— ولم انقضت عليك أنت ؟ .

— قلت إنى أردت التخليص بينهما .

— ولكن ذلك لا يبرر اشتباكها معك ؟
— حصل .

نظرت إليها برقة ومودة ثم سألتها :

— هل بينك وبين ..

لكنها تجاهلت سؤالى فقلت :

— ١٧٢ —

— لا عيب في ذلك ، وأنا صديق ، وباسم الصداقة أسألك .

فأحنت رأسها بالإيجاب .

— إذن فأنت مخطوبة وتخفين عني ؟

حركت رأسها نفيا فقلت :

— لم تعلن الخطوبة بعد ؟.

وأقلقني سكوتها فسألت :

— متى تعلن ؟

أجابت بثقة :

— كل شيء بأوانه .

هجس هاجس الخوف في صدرى فقلت :

— لكنه هجر الأخرى كما رأيت ؟

فقلت ببراءة :

— إنه لا يحبها .

— فلم خطبها إذن ؟

نظرت إلى بإشفاق ثم تشجعت قائلة :

— لم تكن في الحقيقة خطيبته ، إنها امرأة ساقطة !

— الخيانة هي الخيانة على أى حال !

وقع القول من مسمعى موقعا غريبا فاجعا فوجدت له في فمى طعم السم

وعواقبه . وحنقت على سرحان ضمن حنقى على نفسى فلعنته ألف لعنة .

— ١٧٣ —

وعندما جاءتنى فى نفس الموعد بعد ذلك بأيام قالت لى بروح مرحلة
عالية :

— أستاذ .. هل أبوح لك بسر ؟

نظرت إليها مستطلعا ، ومتوقعا المزيد عن علاقتها بسر حان ولكنها
قالت لى :

— سأتعلم !.

لم أفهم فى الواقع شيئا وظللت أنظر إليها مستطلعا . فقالت :

— اتفقت مع جارتنا ست علىة محمد المدرسة على تعليمى .

ذهلت .. وهتفت :

— حقا ؟.

— نعم .. اتفقنا على كل شيء ..

قالت بفخار :

— فكرت فيه بنفسى ..

— نعم .. ولكن ماذا جعلك تفكرين فيه ؟

— قلت لن أبقى جاهلة إلى الأبد ، ثم إن لى غرضا آخر !

غرض آخر ؟

— نعم .. سأتعلم مهنة !

رمقتها بإكبار وسعادة وهتفت :

— رائع .. رائع .. رائع يا زهرة ..

لبثت منفعلا بالسعادة والإكبار وأنا منفرد بنفسى فى الحجرة المغلقة.
كان المطر يهطل، وهدير الأمواج يتتابع فى دفعات مدوية متقطعة راطنا
بلغته المجهولة. ثم مضى الانفعال يهدأ وينخفض ويبرد حتى انداح فى
مستنقع من ماء آسن يغشاه زبد الكآبة. إن الصعود يذكر بالهبوط،
والقوة بالضعف، والبراءة بالعفن، والأمل باليأس. وللمرة الثانية لم أجد
من أصب عليه جام غضبى إلا شخصية سرحان البحرى!

اخترنا مجلسنا تحت شجرة كافور بكازينو الشاطئ . وكانت
الشمس المائلة عن السمى ترىق علينا شعاعها الدافئ فتذيب برد القاهرة
القارص . وقالت وهى تنفادى طيلة الوقت من تلاقى عينينا :
— ما كان يجب أن أجيء !

فقلت بطمأنينة :

— ولكنك جئت فحسم مجيئك التردد !

— لم يحسم شيئا ، ثق من ذلك !

نظرت إليها وبنى تصميم على القفز إلى الهاوية :

— إنى مقتنع بأن مجيئك ..

— كلا ، المسألة أنى لم أرض أن أبقي وحيدة مع رسائلك .

— لا أظن أن رسائلى تتضمن جديدا .

— ولكنك أرسلتها لشخص لا وجود له !

— ١٧٥ —

فلمست يدها المطروحة على المائدة كأنما لأثبت لها الوجود ولكنها
سحبته وهي تقول :

— لقد أرسلتها بعد زمانها بأربع سنوات !

— إنها تتضمن أشياء تجاوز بطبعها الزمان والمكان !

— ألا ترى أنني ضعيفة وتعيسة !

— وأنا كذلك ، إني في رأى أصحابنا جاسوس . وفي رأى نفسى

خائن . ولا ملجأ لى إلا أنت ..

— أى دواء !

— لا يبقى غيره إلا الموت أو الجنون

نفخت فى توتر معذب ثم تمتمت :

— إني خائنة من قديم الزمان .

— بل كنت مثال الإخلاص الزائف ..

— تعريف آخر للخيانة التى مزقتنى ..

فقلت بغضب :

— إننا نتمزق بلا سبب حقيقى ، وذاك جوهر المأساة ..

ونظرنا إلى النيل بلونه الرصاصى وأواجه شبه الساكنة . ثم تسللت

يدى من وراء المائدة إلى يدها فاحتوتها بحنان ، وشدت قليلا لتسكت

مقاومتها الضعيفة . وهمست :

— لا يجوز أن ندعن لرواسب غير صحية !

فقلت بحزن :

— إننا نتدهور معا بأكثر مما تصورت .

— لكننا سنخرج من التجربة كالمعدن النقي ..

ووجدت رغبة طاغية تدفعنى إلى الحضيض كأنما الحضيض غاية منشودة تطلب لذاتها ، أو كأنما الجحيم أمسى هدف الإنسان النهم إلى السعادة .

* * *

التقيت فى محطة مصر بصديق قديم . صحفى وذى ميول تقدمية ولكنه لم يشتغل بالسياسة . جلسنا فى البوفيه ، أنا فى انتظار الديزل وهو فى انتظار شخص قادم من القنال . قال :

— على أن أشكر هذه الفرصة الطيبة فقد كنت أود أن أقابلك ..
حسن، ماذا يريد، إننى لم أره منذ تعيينى فى الإسكندرية. وإذا به يسألنى:

— ماذا يحىء بك إلى القاهرة ؟

حدجته بدهشة. أجل.. وكان يدرك أن سؤاله سيثير دهشتى..
فقال:

— لتشفع صداقتنا لصراحتى ، يقولون إنك تجىء من أجل مدام

فوزى !

لم أنزعج الانزعاج الذى توقعه . فقد ساورتنا — أنا ودريه —

— ١٧٧ —

الشكوك من قبل ، فقلت بفتور :

— إنها في حاجة إلى صديق كما تعلم .

— وأعلم أيضا ..

فقاطعته باستهانة :

— وتعلم أنني أحبها من قديم !

فتساءل بإشفاق :

— وفوزى ؟!

— إنه أعظم مما يظن الآخرون .

فقال بضيق :

— إني — كصديق — غير سعيد بما يقال !

— حدثني عما يقال ؟

ولكنه سكت .. فقلت بعصبية :

— إنني جاسوس ، إنني هربت في الوقت المناسب ، ثم تسللت إلى

بيت الصديق القديم !

— لم أقصد إلا ..

— وأنت تصدق ذلك !

— لا .. لا .. ولن أسامحك إذا توهمت ذلك ..

تساءلت في طريق عودتي إلى الإسكندرية : هل أستحق نعمة

الحياة ؟. إني أبحث عن حل لمتناقضات شتى ، حل عسير فيما يبدو . فلم لا يكون الموت هو الحل الأخير ؟. وأرددت أن أجلس بعض الوقت فى التريانون ولكننى لمحت من الخارج سرحان البحيرى وحسنى علام جالسين يتحادثان فعافتهما نفسى وعدلت عن الدخول . كانت سحب مقاربة الألوان تركض بسرعة ملحوظة وهى دانية ، والهواء يهب فى دفعات منعشة . سرت والكورنيش متحديا وقد ارتفع الماء وتطاير رشاشه إلى الطريق . وقلت لو أننى كنت أملك أشياء ثمينة لحطمتها . وقلت إن التوازن لن يرجع إلى الأشياء إلا بزلزال شامل . وجاءتنى زهرة بالشاى . قالت لى باعتداد الواثق من اهتمامى بشئونها :

— جاء أهلى ليأخذونى ولكننى رفضت ..

ورغم فتور مشاعرى عامة فإن اهتمامى بزهرة لم يمت ، فقلت لها :
— أحسنت !

— حتى الرجل الطيب ، عامر بك ، نصحنى بالرجوع إلى القرية ..

— إنه يخاف عليك ، هذا كل ما هنالك .

فرمقتنى بإمعان ثم قالت :

— ولكنك لا تبسم كعادتك !

ابتسمت إليها بلا روح فقالت :

— ١٧٩ —

— أنا فاهمة !

— فاهمة ؟

— نعم ، سفرك كل أسبوع وانشغال بالك ؟

ضحكت على رغمي فقالت بسعادة :

— أتمنى أن أشهد فرحك !

— ربنا يسمع منك يا زهرة ..

وتم التفاهم على ضوء نظرة متبادلة . وأشارت بيدها كأنما تدعوني

إلى المرح فقلت :

— هناك شخص ينغص عليّ صفوى ..

— من هو ؟

— شخص خان دينه !

فحركت يدها مستكبرة .

— وخان صديقه وأستاذه !

واصلت حركتها الاستنكارية فسألتها :

— هل يغفر له الذنب أنه يحب ؟

فقالت مستفظة :

— حب الخائن نجس مثله !

* * *

انغمست في العمل . وكلما اضطربت أعصابي أو تشتت فكري

سافرت إلى القاهرة . هنالك سعادة الحب . ولكن أى سعادة ؟ . لقد سعدت حقاً عندما كفت عن المقاومة فتركت يدها في يدي . ولكنني عانيت بعد ذلك شعوراً محموماً قلقاً ، وسيطرت على فكرة غريبة وهي أن الحب طريق الموت ، وأنني بالإفراط في كل شيء قد أبلغ نهاية الطريق . وقلت لها مرة :

— أحببتك من قديم ، إنك تذكرين ذلك ، ثم فوجئت بخطوبتك !
فقلت بحزن :

— إنك تبدو متردداً فيسهل إساءة فهمك :

ثم قالت بنبرات اعتراف :

— قبلت فوزي تأثراً بشخصيته . إنه كما تعلم يستحق كل إكبار ..
وكان يجلس حولنا كثيرون من العشاق فسألتها :
— وهل نحن سعداء ؟

فحدجتنى باستغراب وقالت :

— يا له من سؤال يا منصور !

— أعني ربما سأبكيك أننى جعلت منك حديث المجالس !

— لا يهمنى ذلك أما فوزي ..

أرادت بلا شك أن تردد ما قلته مرات عن سعة إدراكه وكبر قلبه ولكنها سكنت . وكرهت إدارة الأسطوانة من جديد . وإذا بي أسأها :

— ١٨١ —

— درية هل داخلك الشك فى كالأخرين ؟
قطبت فى استياء لأنها حذرتنى أكثر من مرة من طرق ذلك الموضوع
ولكنى قلت برغبة ملحة :
— لو فعلت لكان أمرا طيعيا !
تحولت إلى محتجة وسألت :
— لم تنبش عن العذاب ؟
تراجعت باسمي وأنا أقول :
— طالما أسأل نفسى عما دعاك للخروج عن الإجماع ؟
فقلت بضجر :
— الحق أنه ليس لك طبيعة الخونة !
— وما طبيعة الخونة ؟ ، إني ضعيف ، إذعاني لأخى ضعف لا شك
فيه ، وإني أرشح الضعفاء للخيانة ..
تناولت يدي بين يديها وقالت برجاء !
— لا تعذب نفسك .. لا تعذبنا ..
وقلت لنفسي إنها لا تدرى أنها أداة من أدوات التعذيب !

* * *

دخلت المدام حجرقي فأيقنت من أننى سأسمع أنباء . إنها تطير
بالأخبار — كفراشة — من ناحية إلى أخرى . حسن . أما سمعت
يا مسيو منصور ؟! . محمود أبو العباس يباع الجرائد خطب زهرة ،

— ١٨٢ —

ولكنها رفضته !

— هو الجنون نفسه يا مسيو منصور !

فقلت ببساطة :

— إنها لا تحبه يا مدام ..

— قلبها سائر في طريق خاطئ !

وغمزت بعينها. وقلت لنفسى الويل له إذا غدر بها. وتملكتنى بغتة فكرة غريبة، أو رغبة منحرفة، وهى أن يغدر بها لأنزل به العقاب الذى يستحقه ! . ومالت نحوى هامسة :

— انصحها من فضلك ، ستعمل برأيك ، .. إنها تحبك ..

وأثارنى فعل الحب فبذلت أقصى جهدى لكى أكظم غضبى .

— إنها من أصل طيب ، شبه أرسقراطى ، ولكنها لم تعد قديسة، للعمل ظروفه القهرية كما تعلم، ولولاى لأخلت شقتها وصودرت أموالها..

الريخ تسفع النوافذ بوابل المطر . هدير الأمواج يقتحم أعماق . لم أشعر بدخول زهرة حتى وضعت قدح الشاي على الترابيزة أمامى . رحبت بها لتنتشلى من أفكارى السوداء . تبادلنا ابتسامة . قدمت لها قطعة البسكوت . وقلت ضاحكا :

— ها هو ثانى عريس ترفضينه !

— ١٨٣ —

رمقتنى بحذر فواصلت قائلاً :

— أتريدى رأىى يا زهرة ؟. إنى أفضل محمود علفى سرحان !
فقطبت قائلة :

— لأنك لا تعرفه ..

— وهل عرفت الآخر كما يجب ؟
فقال بحدة :

— لا أحد يصدق أننى كفء له !

— قولى ذلك لغير أصدقائك !

— إنه لا يفرق بين المرأة وبين الحذاء !

وضحكت فقصت على نادرة من تصرفاته وآرائه . فقلت :

— إنك تستطيعين أن تردى له التحية بأحسن منها ..

ولكنها تحب سرحان وستظل تحبه حتى يتزوج بها أو يغدر بها .

وقلت :

— زهرة .. إنى أحترم رأىك وفعلك ، بودى أن أهنتك فى القريب !

تخلفت عن السفر إلى القاهرة لإنجاز أعمال عاجلة وهامة . اتصلت
بى ذرية بالتليفون مستغيثة من وحدتها المضنية . ولما تلاقينا فى الأسبوع
التالى قالت لى بعصبية :

— جاء دورى لمطاردتك !

فقبلت يدها ، ونحن نستقل بحجرة منفردة بفلورينا ، ثم أوجزت لها أخبارى التضامنة عذرى . وكانت قلقة متوترة الأعصاب فأكثر من التدخين ، ولم أكن على حال أحسن . وقلت لها :

— كنت أدفن نفسى فى العمل ولكنى أطفو رغم إرادتى ويهمس لى صوت غريب بأن ثمة خطأ فى العمل ، أو أن أمرا هاما فاتنى تدبره ، وكثيرا ما أكتشف أننى نسيت شيئا ضروريا فى البنسيون أو فى المكتب ..

فقلت بلهفة :

— ولكننى وحيدة ، ولم أعد أحتمل وحدتى ..

— نحن فى دوامة ، ولا نحرك يدا لحل مشكلتنا ..

— والعمل ؟

تفكرت قليلا . مطاوعا المنطق وحده . ولكن أى منطق ؟ .
لا منطق لمن تعصره الانفعالات . كأنما كنت أنقب عن تحديات جديدة . قلت :

— لو سألنا العقل لأجاب بأن علينا أن نفرق أو أن نسعى إلى

الطلاق !

اتسعت عيناها الرماديتان فى فزع ، ربما لاستجابتها لا لتفورها ، وهتفت :

— الطلاق !



لو سألنا العقل لأجاب بأن علينا أن نفرق أو أن نسعى إلى الطلاق !

فقلت بهدوء :

ثم نبدأ حياة جديدة ..

— تصرف خارق !

— لكنه طبيعي ، وأخلاق إن شئت ..

أسندت رأسها إلى يدها ثم سكتت معلنة إفلاسها ، فقلت :

— ألم أقل إننا لا نحرك يدا ؟

ثم بعد فترة صمت :

— خبريني عن فوزي لو كان مكالي ؟

فقلت بصوت متهاوت :

— أنت تعلم أنه يحبني ..

— ولكنه لن يبقى عليك إذا علم أنك تحبيني ..

— ألا يتسم تفكيرك بطابع نظري جدا ؟

— ولكنني أعرف فوزي ، وهذا واقع !

— تصور .. تصور أن يقول ..

— إنك تخليت عنه وهو في السجن ، أليس كذلك ؟ ، لا قيمة لذلك

تتخلين عنه لا عن مبادئه ..

تخيلته وهو مستلق على الكنب الاستديو ، يرمقني بعينه اللوزيتين

السوداوين ، يدخن غليونه ، يعالج هموما لا حصر لها ولكنه لا يشك في

سعادته الزوجية ! . وسألتني :

— فيم تفكر ؟

فقلت :

— إن الحياة الحقّة لا تجود بنفسها إلا للأكفاء ..

ثم تناولت يدها وأنا أقول :

— لنشرب كأسين ولنكف عن التفكير ..

* * *

غبت عما حولى . صهرنى الغضب . مذ علمت بتهجم حسنى
علام على زهرة صهرنى الغضب . كان يجلس معى فى المدخل عامر
وجدى والمدام ولكنى لم أسمع من حديثهما إلا وشا . وعلمت أيضا
بمشاجرة سرحان وحسنى فتمنيت لو أنها استمرت حتى الموت ، الموت
لكليهما . تمنيت أيضا أن أؤدب حسنى ولكن لم يداخلنى شك فى
قدرته على سحقى فكرهته حتى الجنون . وغادرت المدام المكان فنبهتنى
إلى ما حولى . نظرت إلى عامر وجدى فرأيت يرنو إلى باهتمام ومحبة
فتخففت من انفعالات القتال المحتدمة فى صدرى ، وتلقيت فكرة
عجيبة بأن الرجل العجوز كان صديقا حميما لأبى أو لجدى . وراح
يسألنى عن أحلامى فقلت باقتضاب :

— يخيّل إلى أنه لا مستقبل لى .

فابتسم ابتسامة مجرب لكل شئ، وكأنا مر به سخطى مرات بشتى

الصور ، ثم قال :

— الشباب عدو الرضى ، هذا كل ما هنالك .

— ١٨٨ —

— لقد استغرقنى الماضى فبت أعتقد أنه لا يوجد مستقبل !
قال بجدية وقد زایل الابتسام وجهه :
— ثمة صدمة ، عثرة ، سوء حظ ، ولكنك تستحق الحياة بكل
جدارة ..
كرهت أن أناقش معه همومى ، حتى المشروع منها ، فتساءلت
متهربا :
— ماذا عن أحلامك أنت يا أستاذ ؟
ضحك طويلا ثم قال :
— نوم الشيوخ يقل للدرجة التى تنعدم فيها الأحلام ، غير أنى أتمنى
ميتة رفيقة .
— إذن فالموت أنواع ؟
— ما أسعد الرجل الذى نام عقب سهرة طيبة ثم لم يصح إلى الأبد !
فسألته مأخوذا بلذة محادثته :
— أعتقد أنك ستبعث ذات يوم ؟
ضحك مرة أخرى وقال :
— أجل ، إذا جمعت براجك فى كتاب !

يعجبني جو الإسكندرية .. لا فى صفائه وإشعاعاته الذهبية
الدافئة .. ولكن فى غضباته الموسمية .. عندما تتراكم السحب وتنعقد
جبال الغيوم .. ويمتلئ رواق السماء بلحظة صمت مريب .. ثم تنهادر

دفقة هواء فتجوب الفراغ كنذير أو كمنحة الخطيب . عند ذاك يتأيل
 غصن أو ينحسر ذيل .. وتتابع الدفقات ثم تنقض الرياح ثملة بالجنون ..
 ويدوى عزيفها فى الآفاق .. ويجلجل الهدير ويعلو الزبد حتى حافة
 الطريق .. ويجمع الرعد حاملا نشوات فائرة من عالم مجهول ..
 وتندلع شرارات البرق فتخطف الأبصار وتكهرب القلوب .. وينهل
 المطر فى هوس فيضم الأرض والسماء فى عناق ندى .. عند ذاك تختلط
 عناصر الكون وتموج وتلاطم أخلاطها كأنما يعاد الخلق من جديد ..
 وعند ذاك فقط يجلو الصفاء ويطيب .. إذا انقشعت الظلمات ..
 وأسفرت الإسكندرية عن وجه مغسول .. وخضرة يانعة . وطرقات
 متألفة . ونسائم نقية . وشعاع دافئ . وصحوة ناعمة ..
 عايشة العاصفة من وراء الزجاج . حتى نعمت بالصفاء . شىء
 حدثنى بأن تلك الدراما إنما تحكى أسطورة مطمورة فى قلبى... وتخط
 طريقا ما زال غامض الهدف .. أو تضرب موعدا فى غممة لم تفهم
 بعد .

دقت الساعة الكبيرة فوضعت أصبعى فى أذنى حتى لا أعرف
 الوقت . ثم ترامت إلى أصوات غريبة . استمرت فى إصرار وارتفعت .
 مشاحنة ؟ .. شجار ؟ . إن الأحداث التى تقع فى البنسيون تكفى قارة
 بأكملها . وحده قلبى بأن زهرة محورها كالعادة . وفتح باب بعنف
 فوضحت الأصوات تماما . زهرة وسرحان ! . وثبت إلى الباب
 ففتحته . رأيتهما فى الصالة وجها لوجه كديكين والمدام تحول بينهما .

— ١٩٠ —

وكان سرحان يصرخ في غضب هادر :

— أنا حر .. أتزوج بمن أشاء .. سأتزوج من عليّة !

زهرة غاضبة كبركان ، عز عليها أن يعث بها ، أن تنهار آمالها ثم ترتد
وهي الخاسرة . إذن قد نال أربه ويريد أن يولى وجهة أخرى . اقتربت
منه ثم أخذته من يده عائداً إلى حجرتي . كان ممزق البيجاما في أكثر من
موضع ، دامى الشفتين . وراح يصيح :

— شريرة متوحشة !

فطالبته بالهدوء ولكنه تمادى في الغضب وهو يقول :

— تصور .. تريد حضرتها أن تتزوج منى !

فعدت أنصحها بالهدوء فصاح :

— مجنونة فاجرة !

وضقت به فسألته :

— لم أردت أن تتزوج منك ؟

— أسأها .. أسأها ..

— إني أسألك أنت ..

نظر إليّ لأول مرة في انتباه فقلت :

— لا بد من سبب يبرر طلبها ؟

تحول الانتباه في عينيه إلى حذر ثم سألتني :

— ماذا تعنى ؟

فقلت بغضب :

— ١٩١ —

— أعنى أنك وغد ...

— أستاذ !

فبصقت في وجهه وأنا أصرخ :

— على وجهك ، ووجه كل وغد ، وكل خائن ..

وسرعان ما اشتبكنا في عراك عنيف . بيد أن المدام اقتحمت الحجرة قبل أن يستفحل الضرب .

دخلت بيننا وهي تقول :

— من فضلكم . لقد ضقت بذلك كله . سوا خلافاتكم في الخارج لا في بيتي !

وذهبت به خارج الحجرة .

مظلم الرأس ، مثقل القلب . مشيت الفكر ، هكذا ذهبت إلى دار الإذاعة . ولما دخلت حجرتي رأيت امرأة جالسة أمام مكتبي . امرأة ؟! درية !. أجل درية دون غيرها . عقلت الدهشة لساني ، تسمرت أمامها لحظات ، ثم انجابت الظلمات عن رأسي فهتفت :

— درية !

وابتسمت . يجب أن أبتسم . بل يجب أن أتهلل . وأخذت يدها بين يدي فضغطت عليها بحنو ، واجتاحتني عاطفة ثرية بالفرح ، اكتسحت القلق والخاوف التي تنهش قلبي ، وقلت :

— يا لها من مفاجأة .. أي سعادة يا درية ..

— ١٩٢ —

قالت وهى تطالعنى بوجه شاحب :

— كان يمكن أن أنتظر يومين حتى نلتقى ولكننى لم أستطع
الانتظار ، واتصلت بك تليفونيا فلم أجذك !

وساورنى قلق لم أعرف كنهه . جئت بكرسى فجلست قبالتها وأنا
أقول :

— ليكن خيرا ما جاء بك يا درية ..

قالت وهى تغض البصر :

— بلغتنى رسالة من فوزى عن طريق صحفى صديق ..

خفقت قلبى . إنه الصحفى الصديق . لا خير هناك على وجه اليقين .

قالت :

— إنه يمنحنى الحرية للتصرف فى مستقبل كما أشاء !

اشتد خفقان قلبى . وضح الأمر بخدايفره ولكنى صممت على
تقطيره نقطة نقطة . والعجب أن الاضطراب شملنى لدرجة لم أنعم فيها
بأى شعور مريح أو سعيد . بل خيل إلى أننى غير سعيد . وسألت
بعناد :

— ماذا يعنى ؟

— واضح أنه علم بأمرنا !

— ولكن كيف ؟

— بأى طريق كان ، ليس ذلك بالمهم !

تبادلنا نظرا حائرا . شعرت بأننى أكبل بالحديد . وقلت لنفسى

كان يجب أن أحظى بقدر من السعادة أو الارتياح ، فماذا جرى ؟ .
وسألت :

— ترى هل غضب ؟

فقلت بعصبية :

— لقد تصرف على أى حال كما توقعت أنت !

أحيت رأسي في تسليم ذاهل ، فقلت :

— عليك الآن أن تمدني برأيك !؟

أجل ، لا يبقى إلا أن أعطيها إشارة البدء ، أن تمضي الإجراءات في سبيلها . أن أبني عش الزوجية كما اقترحت وتميت . ها هو الحلم يستأذني ليتسرب إلى عالم الحقيقة . ولكنني غير سعيد ، يجب أن أكون صريحا مع نفسي ، بل أبعد ما يكون عن السعادة ! . إنني قلق وخائف . وليس ما بي شعور بالندم أو الخجل . إنه ملتصق بذاتي دون غيري . ملكي الشخصي . وإذا لم أكن في موقف دفاع عن سعادتي ففى أى موقف أكون ؟ .

وقالت بنبرة لا تخلو من استياء :

— كلما فكرت وأمسكت عن الجواب . أشعرتني بأنني منبوذة في

وحدة قاتلة !

ولكنني كنت في حاجة إلى المزيد من التدبير . وكان الخوف والقلق قد بلغا بي مبلغا لم أعد أكثر فيه لعواطفها أو حتى مجاملتها . أفقت من سحرها كأن هراوة صكت رأسي . تحررت من سيطرتها . وارتفعت في (ميرamar)

— ١٩٤ —

باطنى المضطرب القلق المذعور موجة سوداء من النفور والقسوة .

لم أجد لذلك تفسيراً إلا يكن الجنون نفسه .

وتساءلت هى بحدة :

— لم لا تتكلم ؟

قلت بهدوء خفيف :

— درية .. لا تقبل هبته الكريمة !

حملقت فى وجهى . حملقت فى وجهى ذابلة غير مصدقة تعيسة

غاضبة ، فقلت ممعنا فى وحشيتى :

— افعل ذلك بلا تردد !

— أنت تقول ذلك ؟!

— نعم ..

— إنه لمضحك ، إنه لمبك ، إلى لا أفهم شيئاً ..

فقلت بياس :

— فلنؤجل الفهم إلى حين ..

— لا يمكن أن تدعنى بلا تفسير !

— لا أملك أى تفسير ..

انبثق شعاع غضب من أعماق عينيها الرماديتين وقالت :

— إنك تجعلنى أشك فى عقلك !

— أعتقد أننى أستحق ذلك !

فصاحت بحنق :

— ١٩٥ —

— أكنت تعبت في طيلة الوقت ؟

— درية !

— صارحنى .. أكنت تكذب على ؟

— أبدا ..

— إذن هل مات حبك فجأة ؟

— أبدا .. أبدا ..

— إنك تصر على العبث في !

— ليس عندي ما أقوله ، إلى أكره نفسي ، هذا ما يجب أن

أصارك به ، وعليك ألا تقترى من رجل يكره نفسه ..

عكست عيناها المحملقتان هبوطا في قواها الداخلية . ثم انتزعت

بصرها من وجهي بازدرء وحق . ولبت فترة صامتة كأنما لا تدري

ماذا تصنع بنفسها . ثم تمت وكأنما تحدث نفسها :

— إلى حمقاء . وعلى أن أدفع ثمن حماقتي . لم تشعرني بالثقة قط ،

ولا الأمان ، كيف تجاهلت ذلك ؟ . لقد دستني في اندفاعك المجنون .

أجل إنك مجنون ..

تخشعت كطفل مذنب مطيع . ولدت بالصمت كذريعة أخيرة

لإنهاء الموقف المعذب . تجنبت النظر نحوها . تجاهلت وقع عينيها .

صوت أصابعها فوق حافة المكتب . نفخها المضطرم ، تحولت إلى جثة

هاملة ..

وجاءني صوتها متهاقنا :

— أليس لديك ما تقول ؟

فتأبرت على الموت . قامت بشيء من العنف فقامت بدورى .
غادرت المكان فتبعتها حتى بلغنا الطريق . وعبرناه معا . ثم أوسعت
خطاها معلنة رفضها لمرافقتى فتوقفت . أتبعها عيني كمن ينظر فى
حلم . وتضخم الحلم وامتد رواقه . وتراجع الواقع حتى توارى وراء
الأفق . رنوت إلى مشيتها المألوفة المحبوبة بغرابة ، وبحزن ، وحتى تلك
اللحظة الجنونية لم يرغب عنى أن ذاك الكائن المخلخل المقهور الذى يختفى
رويدا فى تيار السابلة . لم يرغب عنى أنه حبى الأول وربما الأخير فى هذه
الدنيا . وباختفائها هويت إلى الحضيض . ورغم شقائى المؤكد فقد
داخلنى ارتياح غامض غريب .

البحر يترامى تحت سطح أملس باسم الزرقة فأين العاصفة
الهوجاء ؟ . والشمس تهوى إلى المغيب مرسله شعاعا ماسيا يلتحم
بأهداب سحائب رقيقة فأين جبال الغيوم ؟ . والهواء يلعب سعف
النخيل فى غابة السلسلة بمداعبات شفافه رقيقة فأين الرياح الهوج
الزلزلة ؟ .

ونظرت إلى وجه زهرة الشاحب ، ودموعها الجافة على الوجنتين .
ونظرتها الكسيرة الذابلة ، فخیل إلى أننى أنظر فى مرآة ، وأن الحياة
تطال عنى بفطرتها الخشنة الفظة الرهيبة ، بإمكانياتها المجردة ، بصمودها
الصلب المغطى بالأشواك ، بآمالها الخبيثة فى قوقعة مسمومة الأطراف ،

— ١٩٧ —

بروحها الأبدية التى تجذب إليها المغامرين واليائسين فتقدم لكل غذاءه .
لقد سلبت الشرف وهجرت بلا كبرياء . أجل إني أنظر فى مرآة .
رمقتنى بتحذير وقالت :

— لا لوم ولا عتاب من فضلك .

فقلت بنحزن :

— سمعا وطاعة .

لم أكن أفقت بعد من تجربة درية المريعة ، ولا وجدت الوقت الهادئ
لتحليلها وفهمها . ولكنى كنت ممتلئاً بها حتى الجنون . وكنت على
يقين من أن العاصفة آتية لا ريب فيها . وأن ثمة ذروة للمأساة لم أبلغها
بعد . وكان من المستحيل أن أبقي صامتا فقلت مواسيا :

— قد يكون الخير فيما حصل ..

لم تنبس .. فسألتها :

— ماذا عن المستقبل ؟

تمتت بلا روح :

— إني أحيأ كما ترى ..

— وأحلامك يا زهرة ؟

— سأستمر ..

قالتها بعناد وإصرار ولكن أين الروح ؟. قلت :

— سيذهب الحزن كأن لم يكن ، وسوف تتزوجين وتنجبين

أطفالا ..

قالت بمرارة :

— خير ما أفعل أن أتجنب جنس الرجال ..
ضحكت . أول ضحكة منذ دهر . إنها لا تدرى بالدوامة التي
تعصف بي ، ولا بالجنون الذي يتربص بي .
وخطرت لي فكرة ، أخطرت فسيحة وبلا مقدمات ؟ كلا لا شأن
أن لها جذورا مطمورة لم أفطن لها . إنها جنونية ولذلك فهي مغرية .
فكرة غريبة باهرة وأصيلة . وغير بعيد أن تكون هي ما أبحث عنه . أن
تكون البلسم لآلتها باقى الزمنة . نظرت إليها بحنان ، وقلت :
— زهرة ، لن تطيب لي الحياة وأنت حزينة ..

اغتنبت من شفيتها ابتسامة شكر فقلت وموجة الحماس ترتفع بي
درجة جديدة :

— زهرة .. اطردي الأحزان .. كوني كما كنت دائما . خبريني متى
أرى ابتسامة السعادة على شفتيك !

ابتسمت برأس حان . ارتفعت موجة الحماس درجة جديدة . ها
هي الفتاة المنفية الوحيدة المهجورة المسلوقة الشرف ، وقلت بانفعال
غريب :

— زهرة .. لعلك تجهلين كم أنك عزيزة عندي .. زهرة .. اقبليني
زوجا لك !

التفت نحوى بحركة سريعة . ذاهلة وغير مصدقة . انفرجت
شفتها لتكلم ولكنها لم تنبس بحرف .

— ١٩٩ —

قلت وأنا واقع تحت سيطرة انفعالي الغريب :

— اقبليني يا زهرة .. إني أعنى ما أقول !

قالت ولما تفق من دهشتها :

— لا ..

— فلتزوج في أقرب فرصة ..

تحركت أصابعها القوية بعصبية وهي تقول :

— إنك تحب واحدة أخرى !

— لم يكن هناك حب ، إنها حكاية اختلقها خيالك ، فأسمعيني جوابك

يا زهرة !

تنهدت .. تنهدت وهي ترمقني في ارتياب وقالت :

— أنت كريم نبيل ، وعطفك يدفعك في طريقه بلا تفكير ، كلا ،

لن أقبل ذلك ، وأنت لا تعنيه ، كلا ، لا تعد إلى ذلك ..

— إذن ترفضيني يا زهرة ؟

— إني أشكرك ، ولكن ليس هناك طلب حتى أرفضه أو أقبله ..

— صدقيني ، أقسم لك ، امنحيني وعدا .. أملا .. وسأنتظر !.

قالت بإصرار ودون أن تأخذ كلامي مأخذ التصديق الحقيقي :

— كلا ، إني أشكر عطفك وأقدره ، ولكنني لا أستطيع أن أقبله .

عد إلى فتاتك ، إن كان هناك خطأ فلا شك أنها هي المخطئة ولكنك

ستسامحها ..

— زهرة .. صدقيني ..

— كلا .. لا تعد إلى ذلك من فضلك .

قالتها بإصرار رهيب ، ثم تبدى الإعياء في أعماق عينيها ، وكأنا ضاقت بالموقف كله فشكرتني بإيماءة وهي تمضي خارجا بتصميم قاطع .

ارتددت إلى الفراغ . نظرت فيما حولى كأنما أبحث عن غوث . متى يقع الزلزال ؟، متى تهب العاصفة ؟. وماذا قلت ؟. كيف قلته ؟. ولم ؟. أيوجد شخص آخر يتخذ منى وسيطا له كلما شاء هواه ؟. وكيف يمكن أن أضع حدا لذلك كله ؟

* * *

كيف يمكن أن أضع حدا لذلك كله ؟. كررت السؤال وأنا أغادر الحجرة بجنونى . رأيت فى الصالة سرحان البحرى وهو يتكلم فى التليفون ، ولحت حقييته وراء الباب مؤذنة برحيله الأبدى . نظرت إلى مؤخر رأسه المائل إلى سماعة التليفون بمقت . كأنما أنظر إلى عدو لدود ورأى . إنه يملأ حياقى أكثر مما تصورت . وإذا اختفى حقا إلى الأبد فماذا أصنع بحياتى ؟. وكيف أعثر عليه مرة أخرى ؟. إنه يشدنى إليه شدا . كالنور والفراشة . إنه الجرعة السامة التى قد أتداوى بها .

وارتفع صوته الرنان وهو يقول للتليفون .

— طيب .. الساعة الثامنة مساء .. سأنتظرك فى كازينو البجعة !.

إنه يضرب لى موعدا .. وربما يحدد لى هدفا . إنه يدعو بجنونى إلى



جاء البطل المنشود .. جاء يتقدمه طلبة مرزوق !

الرقص . صوته الرنان يغرينى بالانتحار . إنه يأمرنى بأن أتبعه .
وسيمن على بانتشالى من الفراغ .
تراجعت إلى حجرى خشية أن أندفع مع عواطفى الجامحة . ولما
غادرت البنسيون لم يكن به أثر لسرحان .
ذهبت إلى أثنيوس . فكرت أن أكتب رسالة إلى درية ولكن الجنون
عصف برغبتى كما عصف بعقلى .

واتخذت مجلس فى ركن البهو الداخلى بكازينو البجعة . كمن قرر
الهجرة فودع المدينة وهومها جميعا . وجدت شيئا من الراحة وشيئا من
صفاء الذهن . توارى الركن وراء موائد مشغولة برجال ونساء .
وطلبت كأسا من الكونياك ثم أتبعها بأخرى وعيناي مصوبتان نحو
المدخل . وقيل الثامنة بربع ساعة جاء البطل المنشود . جاء يتقدمه طلبة
مرزوق ١ . أكان هو الشخص الذى كلمه فى التليفون ؟ . ومتى جمعت .
بينهما هذه الصداقة الطارئة ؟ . جلسنا على مبعدة عشر موائد من
مجلسى ، وجاءهما الجرسون بكونياك كذلك . وتذكرت أننى وافقت
صباحا — على مائدة الإفطار — على اقتراح لطلبة مرزوق بأن نمضى
سهرة رأس السنة فى المونسنيير ١ . أجل وعدت بالاحتفال بليلة رأس
السنة الجديدة . ومضيت أنظر إليهما من وراء وهما يشربان ويتبادلان
الحديث والضحك .

* * *

حرصت على ألا يرانى ولكنه لحنى فى المرأة . تجاهلته ومضيت وأنا

— ٢٠٣ —

ألعن سوء الحظ . كانت الطريق خالية تماما وكنت أسمع أطيـط
حذائه ورأى . وأبطأت فى السير حتى أوشك أن يدركنـى
وكنا أوغلنا فى الطريق الخالية ، وحاذانى وهو يرمقنى بارتياح ، وتباطأ
فى السير حتى لا يعرض لى ظهره بلا دفاع ، وقال :

— إنك تتبعنى .. لقد رأيتك من البداية !

فقلت ببرود :

— نعم ..

ازداد حذرا وهو يتساءل :

— لماذا ؟

نزعت المقص من معطفى وأنا أقول :

— لأقتلك ..

تججرت عيناه على المقص وهو يقول :

— أنت مجنون بلا شك ..

وتوثب كلانا سواء للهجوم أو للدفاع ، ومضى يقول :

— لست بولى أمرها ! ..

— ليس من أجل زهرة .. ليس من أجل زهرة فقط ..

— إذن لماذا ؟

— لا حياة لى إلا بقتلك !

— ولكنك ستقتل أيضا ، أنسيت !

فاجتاحنى شعور المهاجر الذى ودع المدينة بكافة همومها ، وثملت

— ٢٠٤ —

به . وإذا به يسألنى :

— كيف عرفت مكانى ؟

— سمعتك فى البنسيون وأنت تتكلم فى التليفون .

— وعزمت عند ذاك على قتلى ؟

— أجل .

— ألم تعزم على ذلك من قبل ؟

— ذهلت ، لم أجب ، ولكننى لم أراجع .

— إنك فى الواقع لا تريد قتلى !

— بل أريده وسأقتلك ..

— هبك لم ترنى ولم تسمعنى فى تلك اللحظة ؟

— ولكننى رأيتك وسمعتك .. وسأقتلك .

— ولكن لماذا ؟

— ذهلت مرة أخرى ولكن تأكدت نيتى على القتل ورسخت إلى الأبد.

وصحبت به :

— لذلك أقتلك ، خذ .. خذ ..

* * *

ترامت إلى ضحكة سرحان وهو يحادث طلبة مرزوق . وأكثر من
مرة غادر مكانه ثم رجع إليه .

لعنت طلبة مرزوق وقلت إن مجيئه قد أفسد كل شئ . غير أنه قام بعد
مضى ساعة أو نحوها فصافح سرحان مودعا وذهب . بقى سرحان

وحده فتلهفت على اللحظة التي يمحي فيها العذاب . وواصل الشراب ولكنه كان يتلفت كثيرا نحو مدخل المكان . ووضح في لفتاته التوتر والقلق . أينتظر شخصا آخر ؟ . هل يحىء الآخر فيضيع الفرصة إلى الأبد ؟ .

ودعاه الجرسون إلى التليفون فمضى مسرعا ملهوبا . غاب بعض الوقت ثم رجع إلى مجلسه واجما متجهما . رجع في الحقيقة متهدما . ماذا حدث ؟ . لم يجلس ، دفع حسابه ثم غادر المكان . راقبته من الزجاج الفاصل بين البهو والداخل فرأيته متجها نحو البار ، ربما لمزيد من الشراب . تربصت به حتى فارق مكانه ماضيا نحو الباب الخارجى فغادرت مجلسى فى هدوء وتمهل . ولدى خروجى كان قد عبر الطريق . أحكمت المعطف حولى اتقاء لهواء خفيف ولكن لاسع كالسياط . الطريق خال تماما ، وأضواء المصابيح متلعة بهالات من الضباب ، وهسيس النبات على الجانبين يخرق الصمت الشامل . سرت حذرا ، أكاد ألاحظ الجدران ، ولكنه بدا غائبا فى أفكاره ذاهلا عما حوله منهمكا بكليته فى عالم وحده ، حتى إنه نسى المعطف مطروحا على ذراعه . ماذا حصل ؟ . لقد ظل طيلة الوقت يتحدث ويضحك فماذا قلبه ؟ . أما أنا فقد تركزت فى فكرة واحدة كأنما هى وجه الخلاص الوحيد لى . وإذا به يميل إلى الطريق الزراعى الموصل للبالا . طريق خال ومظلم ، مهجور تماما فى تلك الساعة ، ماذا يروم منه ؟ ، وأى قضاء يتصرف كأنما ليسلم عنقه بين يدى ؟ ! . أسرعت قليلا حتى لأضله وأنا

الأمس سياج الحدائق ، وقد غرقنا معا في الظلام . وجعلت أتوثب وأنا أتابع شبحه ، ولكنه توقف فجأة فوقفت عن التقدم وأنا أرتعد . سيقع شيء ما . ربما جاء شخص غريب ، عليّ أن أنتظر . وإذا بصوت يند عنه كلمة .. إشارة صوتية . قء ! . وتحرك ببطء مسافة قصيرة ثم سقط على الأرض . سكران مخمور . لقد شرب فوق طاقته وها هو يفقد الوعي . وانتظرت وأنا أرهف السمع ولكن لم يقع شيء . اقتربت منه حتى كدت أعر به . انخبت فوقه ، أردت أن أناديه ولكن صوتي انحبس . لمست جسمه ووجهه فلم يستجب غرق تماما في غيبوبة الخمر ، وسوف يفارق العالم بلا ألم أو خوف ، كما يتمنى عامر وجدى العجوز . هزرتة برفق فلم ينتبه ، هزرتة بشيء من الشدة فلم ينتبه أيضا ، حركته بعنف فلم تبدر منه بادرة أمل في إفاقة . انتصبت قامتي في حنق . دسست يدي لأستخرج المقص ولكني لم أجده أثرا . فتشت عنه في جميع مظانه عبثا . أسهت على أن آخذه ! . كنت مضطربا ، متأزما ، يائسا ، ثم جاءت المدام تستطلع رأيي في سهرة رأس السنة . أجل ، لقد غادرت الحجرة دون أن أحقق الغرض الوحيد من رجوعي إليها . تضاعف غضبي على نفسي ، تضاعف غضبي على السكران المنعم بغيبوبة لا يستحقها . ركلتة في جنبه . ركلتة مرة أخرى بقوة أشد . ركلتة الثالثة بعنف . وجن جنوني فانهلت عليه بطرف الحذاء في شتى أطرافه حتى أفرخت غضبي وهياجي . تراجعت إلى السياج وأنا أترنخ من الإعياء مرددا « لقد قضيت عليه » . كنت أتنفس بصعوبة

— ٢٠٧ —

وأشعر بتقزز ، وسيطر على إحساس مضمّن بأئني مجنون يمارس حركات
جنونية عنيفة في الظلام . وتذكرت درية . تذكرتها وهي تنظر في
أعماق عيني ، وهي تضيع في زحمة الطريق .
ورجعت إلى البنسيون مشيا على الأقدام . تخيلت زهرة وهي تغط في
نوم مرهق ثقيل خائق .
وتناولت حبة منومة ثم استلقيت على الفراش .

* * *

دفعني بإصرار وهو يقبض على منكبي فصرخت غاضبا :
— إنك تقضى عليّ إلى الأبد .

سرکارِ عالی



سريان البحري

هاى لايف .

معرض أشكال وألوان مثير للشغب ، شغب البطون والقلوب .
موجة هائلة من الأنوار الباهرة تسبح فيها قدور فواتح الشهية ، العلب
الحريفة والمسكرة ، اللحوم المقددة والمدخنة والطازجة ، الألبان
ومستخرجاتها ، القوارير المضلعة والمنبسطة والمبططة والمربعة والمنبعجة
المترعة بشتى الخمور من مختلف الجنسيات .

لذلك تتوقف قدمى بطريقة أتوماتيكية أمام كل بقالة يونانية .
— وهواء الخريف يلفحنى بدسامته الجنسية . وعيناي ترنوان إلى
الفلاحة بين الزبائن أمام الطاولة . طوبى للأرض التى غدت وجنتيك
ونهديك . وأنا أراجع أسعار القوارير لمحتها . امتد إليها بصرى من موقفى
فوق الطوار ، مارا فوق برميل الزيتون ، نافذا من فرجة بين الهيج

والديوارس ، مائلا عن قطاعة البسطرمة ، حتى استقر على عارض وجهها الأسمر المرفوع إلى البقال ذى الشارب البلقانى . وقد تأبطت حقيية من القش الجدول ملئت بالمشتريات ، وقد برزت من جانب غطاءها رأس زجاجة الجونى ووكر .

تصدت لها وهى تغادر المحل فتلاقت عينانا ، ارتطمت نظرتها المستطلعة الصلبة بنظرى الضاحكة المعجبة . سارت فى طريقها فسرت وراءها ولا غاية لى إلا تحية الجمال ذى العبير الريفى الذى أحبه . تعرضنا فى طريق الكورنيش لدفقات هواء الخريف المشعشع بالشعاع الوانى الغارب ، وهى تتقدمنى فى مشية عسكرية سريعة حتى انعطفت فيما وراء عمارة الميرامار . التفتت ناحيتى وهى تمرق إلى مدخل العمارة فتلقيت نظرة عسلية محايدة !

وتذكرت موسم جنى القطن فى قرينتنا ..

كان عبيرها قد تبخر من نفسى أو كاد عندما رأيته للمرة الثانية فى نهاية الأسبوع . لمحتها أمام معرض محمود أبو العباس وهى تبتساع الجرائد . أدركتها قبل أن تذهب وأنا أقول :
— صباح الفل ..

رد محمود أبو العباس التحية دونها ولكنها نظرت نحوى فتلقيت نظرتها بعين صقر تود أن تشدها إليها إلى الأبد . سرعان ما ذهبت وقد هيجت عبيرها من جديد فملاً حواسى جميعا ، وقلت لمحمود :

— هنيئاً لك !

فضحك في براءة فسألته :

— من أين ؟

فأجاب دون مبالاة :

— تعمل في بنسيون ميرانمار !

رددت إليه مبلغاً كنت اقترضته في زنقة من مطالب الأسرة ثم مضيت أتمشى حول الفسقية في انتظار المهندس على بكير . فلاحه حلوة ، حلوة بكل معنى الكلمة ، وهى تسلب لبي . انتشيت بالانفعال وشعاع الشمس وبالوجوه الكثيرة الواقعة في حبال الانتظار حولي . وتذكرت موسم جنى القطن في قريتنا .

جاء على بكير حوالى العاشرة صباحاً فذهبنا إلى مسكنى بشارع الليدو بالأزاريطه . كانت صفية قد ارتدت ملابسها فذهبنا إلى سينما مترو . غادرنا السينما فى الواحدة بعد الظهر فسبقانى إلى الشقة وذهبت إلى هاى لايف لابتياح زجاجة نبيذ قبرصى .

رأيت الفلاحه واقفة تستبضع . كملاطفة الأحلام وابتسام الحظ . شئ نهىها إلى وقفتى فيما وراءها فالتفتت مستطلعة فرأت وجهى المبتهج . أرجعت رأسها ولكنى لمحت فى مرآة تتوسط أسراباً من قوارير الخمر ابتسامه انفرجت عنها شفتاها الورديتان . رأيت — فيما يرى الحالم اليقظان — نفسى مقيماً فى البنسيون ، أستمتع فيه بالدفء

— ٢١٣ —

والحب . لقد تسللت إلى نفسى أنعشت قلبى كما حدث له مرة في كلية التجارة . وهذه الابتسامة صريحة كشمس النهار المشرق . فلاحه .. بعيدة عن منبتها .. غريبة في بنسيون .. غريبة كالكلب الضال الأمين في سعيه وراء صاحب .

وقلت لها ونحن نغادر المحل :

— لولا ضوء النهار لأوصلتك ..

فقطبت ساخرة وهى تقول دون غضب حقيقى :

— دمك خفيف !

فحلمت أحلاما سعيدة بعبير الريف والحب البكر ..

وجدت على بكير متربعا فوق شلته بحجرة الشلت ، وصفية تعد الطعام فى المطبخ . ارتيمت إلى جانبه ثم وضعت الزجاجة أمامى وأنا أقول :

— نار .. هذا هو آخر تعريف علمى للأسعار ..

شد على ذارعى ثم سألنى :

— مرت أزمة العام الدراسى الجديد ؟

— مرت ولكن بغير سلام ..

أخبرته ذات يوم بتنازلى لأمى وإخوتى عن إيراد ميراثى من الأرض البالغ أربعة أفدنة ولكن ما الفائدة ؟! وقال مشجعا :

— ٢١٤ —

— ما زلت فى مقتبل العمر والحياة ، وأمامك مستقبل باهر ..

فقلت فى ضجر :

— حدثنى عن الحاضر من فضلك ، وخبرنى بالله عن معنى الحياة بلا

فيللا وسيارة وامرأة ؟

ضحك على بكير موافقا ، وسمعت صفية حديثى وهى قادمة

بالصينية فرمقتى بنظرة ضارية وخاطبت المهندس قائلة :

— لا ينقصه شىء ولكنه جاحدا بن جاحدة !

فتراجعت قائلا :

— لا أملك فى الواقع إلا المرأة !

قالت صفية متشكية :

— نحن نعيش عيشة مشتركة منذ أكثر من عام ، عزمت على تعليمه

الاقتصاد فجرفتى معه إلى التهدير !

شربنا وأكلنا ونمنا .

وغادر ثلاثتنا المسكن قبيل الغروب فذهبت صفية إلى الجنفواز ،

وذهبت وعلى بكير إلى الكافيه دى لايه . سألتنى ونحن نختسى القهوة :

— أما زالت تطمح إلى الزواج منك ؟

— مجنونة .. ماذا تتوقع من مجنونة ؟

— أخاف أن ..

— نجوم السما أقرب إليها منى ، ثم إننى مللتها جدا ..

نظرنا من الزجاج إلى جو رائق . شعرت بعينى على بكير وهما

تتحولان إليّ فتجاهلتهما وأنا أستشعر نذير الخطر . ومالبث أن قال :

— لندخل في الجد ..

حولت نظري إليه . صرنا وجها لوجه . لا مفر الآن ولا مهرب . قلت :

— لندخل في الجد ..

فقال في هدوء غريب :

— حسن ، تمت دراسة الموضوع بدقائقه !

انقبض قلبي .

انقبض قلبي . نظرت إليه بتسليم واهتمام وقلق . قال :

— أنا المهندس المختص وأنت المشرف على حسابات القسم ، سواق

اللورى مضمون ، وكذلك الخفير ، لم يبق إلا أن نجتمع للقسم على القرآن ..

ضحكت رغما عني . نظر إليّ متسائلا ، ثم أدركت النكتة التي

أفلتت منه بلا قصد . ضحك أيضا ، ثم قطب قائلا :

— ليكن ، إنه مال بلا صاحب ، تصور ما يعنيه لورى من الغزل في السوق

السوداء ، عملية مأمونة ويمكن أن تتكرر أربع مرات في الشهر ..

رحت أفكر وأحلم . وواصل على حديثه قائلا :

— الخطوات المشروعة سراب ، صدقني . ترقيات وعلاوات ثم

ماذا ؟ ، بكم البيضة ؟ .. بكم البدلة ؟ وها أنت تتحدث عن فيلا

وسيارة وامرأة ، حسن ، أفتنى إذن ؟ ، وقد انتخبت عضوا في الوحدة

فماذا أفدت ؟ ، وانتخبت عضوا في مجلس الإدارة فماذا جد ؟ ،

وتطوعت لحل مشكلات العمال فهل فتحوا لك أبواب السماء ؟ ،

— ٢١٦ —

والأسعار ترتفع والمرتبات تنخفض والعمر يجرى، حسن، ما الخطأ؟،
كيف وقع؟، أنحن أرانب معمل؟! عزيزى.. اعدلى على القبلة..
سألته وصوتى يقع من سمعى موقع الصوت الغريب :
— متى نشرع فى العمل ؟

— لن نبدأ قبل شهرين وربما ثلاثة ، يجب أن يكون التخطيط أساس
عملنا ، وبعدها حياة خالد الذكر هارون الرشيد !
رغم أن مقاومى الحقيقية كانت قد انهارت من زمن بعيد إلا أن قلبى
ناء بهم ثقيل . وجعل ينظر فى عينى ببصر حاد . ثم سألنى :
— هه ؟.

فانفجرت ضاحكا . ضحكى حتى دمعت عينائى ، وطالعتنى وجهه
طيلة الوقت صلبا باردا متسائلا . ملت نحوه فوق المائدة ثم همست :
— أوكى أيها الزميل العزيز ..

شد على يدى ثم ذهب . لبثت وحدى موزعا بين أفكارى .
— أستاذ .. سأحتاج قريبا إلى خبرتك ..
سألته عما يريد فقال :

— سأشتري — إن شاء الكريم — مطعم بنىوتى عندما يقرر السفر إلى
الخارج ..

ذهلت حقا. نظرت إلى معرضه المكتظ بالكتب والجرائد والمجلات،
هل مكنه حقا من ادخار ما يحتاج به مطعم بنىوتى؟. وسألته:
— ماذا تريد منى وأنا لا أعرف عن الطعام إلا أنه يؤكل ؟

— ٢١٧ —

— أن تساعدني في الحسابات ..
وعدته خيرا ، ثم خطر لي أن أبيع الأفدنة وأشاركه ، فسألته :
— لعلك تحتاج إلى شريك ؟
فأجاب بنفور واضح :
— كلا ، لا أحب الشركة ، ولا أريد للمطعم أن يكبر فيلفت نظر
الحكومة !

* * *

ذهبت إلى المقر العام للاتحاد الاشتراكي فاستمعت إلى محاضرة عن
السوق السوداء ، أعقبها مناقشة عامة . ولما انفض الاجتماع سمعت
صوتا يناديني وأنا ماض نحو الباب الخارجى . توقفت في تيار الزحام وأنا
أتلفت فرأيت رأفت أمين مقبلا نحوى . لم أكن رأيته منذ عهد الدراسة
بالجامعة فتصافحنا بحرارة ، وسرنا في الزحام حتى خرجنا إلى الطريق .
أخبرنى بأنه حضر الاجتماع باعتباره — مثلى — عضوا فى الوحدة
الأساسية لشركة المعادن المتحدة . واتجهنا نحو الكورنيش بإغراء من
لطافة الجو ، ولما خلونا إلى أنفسنا أو كدنا أغرقنا فى الضحك معا .
ضحكنا بلا مناسبة ظاهرة ولكن بدافع من ذكريات مشتركة لم يكن فى
الإمكان نسيانها أو تجاهلها . ذكريات اجتماعية مماثلة ، شهدناها جنبا
لجنب ، فصفقنا معا وهتفنا معا . حدث ذلك عندما كنا عضوين فى
لجنة الطلبة الوفديين بالكلية . أتذكر ؟ . طبعا منذ انسى ؟ كنا وقتذاك
أعداء الدولة . أجل .. أما اليوم فنحن الدولة . وجرى الحديث هكذا

— ٢١٨ —

بين الماضي والحاضر حتى قلت له :
— لا أصدق أنك — أنت بالذات — تبرأت من وفديتك ؟
فعاوده الضحك وهو يقول :
— وأنت لم تكن وفديا مخلصا ، واحدة بواحدة والبادى أظلم ..
ثم لكزنى بكوعه متسائلا :
— ولكن أأنت اشتراكى مخلص ؟
— طبعا ..
— لم من فضلك ؟
— للثورة أعمال لا يسع الأعمى إلا الإقرار بها .
— والبصير ؟
فقلت بجدية :
— إني أعنى ما أقول
— إذن فأنت ثورى اشتراكى ؟
— بلا أدنى شك .
— مبارك ، خبرنى الآن أين نقضى ليلتنا ؟
فدعوته إلى الجنفواز . سهرنا حتى منتصف الليل . أردت أن أنتظر
صفية ولكنها أخبرتنى بأنها مدعوة للذهاب مع زبون ليلى ..

* * *

كنت خارجا من سينما ستراند عندما رأيت الفلاحة الحلوة . كانت
قادمة من شارع صفية زغلول بصحبة عجوز يونانية . رائقة السمرة

ساحرة النظرة ريانة الشباب . كان الطوار مكتظا بالخلق ، والهواء يهب منعشا حاملا رائحة البحر ، وهالة ضخمة من القطن المندوف تغشى القبة فتضفى على الجو لونا أبيض ناعسا ناعما كبهجة الرضى . مضتا تشقان طريقهما وسط الزحام فتراجعت خطوة موسعا وأنا أحيى بإغماضة من عيني . ابتسمت بحذر ، أجل .. استجابت بأسمه فى حذر . وقلت لنفسى إن الصنارة قد نشبت . وشاع فى نفسى سرور كالسائل العذب الذى يخالط الريق بعد مضغ الفول الأخضر البكر الطازج المقطوف لتوه من الأرض الخضراء .

* * *

اختلست من وجهها نظرة وأنا أحتسى قهوة الأصيل . كانت عيناها منتفختين محمرتين من أثر النوم العميق ، وشفتاها الغليظتان منفرجتين ، فى أقبح أحوالها كالعادة ، وغافلة تماما عما دبرت لها . فقلت بلهجة أسيفة مصطنعة :

— صفيه ..

رمقننى مستطلعة فقلت :

— جدت ظروف سخيفة ولكن علينا أن نتوافق معها ؟

فاستقرت فى عينيها نظرة حذرة ، وهزت رأسها داعية إياى إلى الإفصاح فقلت :

— سنضطر إلى تغيير نظام حياتنا ، أعنى الإقامة فى شقة واحدة ! قطبت فنجمع الغضب بين حاجبيها كما يتجمع ماء المطر فى نقرة

— ٢٢٠ —

مطينة وتحفزت للنضال ، فقلت :

— إنها كارثة ، كارثة تماما بالنظر إلى أزمة المساكن ، ولكن زميلا في الشركة لمح لي ، أجل ، حدثت مرة عن الرقابة الإدارية ، ولا شك أن مستقبلك يهتك كما يهمنى .

قالت بضيق محتجة :

— ولكن مضى على حياتنا المشتركة حوالى عام ونصف .

— كانت أهنأ أيام حياتي ، وكان يمكن أن تمتد إلى الأبد دون أن

يدري بها أحد ..

ونظرت في قعر الفنجال كأنما أقرأ البخت ثم واصلت قائلا :

— ولكن سوء الحظ أدركني ، سأرجع إلى شقة العازب المبعثرة ،

وربما اضطررت إلى الإقامة في فندق حقير أو بنسيون مزعج ..

نفخت بوحشية وقالت :

— يوجد حل ، يوجد حل ، ولكنك خسيس ابن حرام !

— أنا رجل صريح ، أحبك حقا ، وسأحبك حتى آخر يوم في

حياتي ، ولكني قلت لك من أول يوم إن الله لم يخلقني للزواج ..

— لأنه خلقت ناقص المروءة ..

— وإذن فلا داعي للرجوع إلى مناقشات لا خير فيها ..

تفرست في عيني كأنما لتنفذ إلى أغوارهما ، ثم قالت :

— تريد أن تهجرني ..

فبادرتها :

— صفيه ، أنا رجل صريح ، لو فى نيتى أن أهجر لك لقلتها بصريح
العبارة وذهبت ..

ران الكدر على روحها ووجهها ، وضاعف العبوس من دمامتها
العابرة ، فتمنيت أن تعافنى وتكرهنى ليذهب كل منا إلى حال سبيله .
وقلت لنفسى إنه عند الحساب ستتعدل كفتانا . كانت حياتنا
مشتركة بكل معنى الكلمة عدا المجاملات التى كانت تنفحنى بها فى
المناسبات والتى صجرت — لظروفى الخاصة — عن ردها . غيرى
آخرون يستغلون عشيقاتهم استغلالا فاحشا . الحق أنى لم أعتد بذل
النقود للنساء . وعلى أى حال فإنى أتوقع معركة ختامية ، وقد جربت
ذلك أكثر من مرة . وقد عرفت الحب فى الكلية ولكنى جئت متأخرا
فضاعت الفرصة . فرصة سعيدة كانت . جميلة وذات مستقبل وكرمة
لطبيب تتدفق عليه أموال المرضى ، ولكن ما فائدة « لو » ؟ .

ها هو قلبى يخفق مرة أخرى . أجل .. إلى أحب الفلاحة . مجرد
شهوة كالتى ساقنتى إلى صفيه فى الجنفواز .

— أريد حجرة لإقامة طويلة .

تجلت نظرة ارتياح فى العينين الزرقاوين المستطلعتين ، ثم تراخت
مستندة إلى ظهر الكنبه تحت تمثال العذراء . فى لفاتها رشاقة متخلفة عن
ماض سعيد ، وشعرها الذهبى المصبوغ يشى برغبة مزمنة فى التشبث
بذلك الماضى . ساومتنى بصراحة تجارية مؤكدة الأسعار الخاصة بالصيف .

— ولكن أأنت قادم جديد إلى الإسكندرية ؟

لم يكن سؤالاً عارضاً ولكنه حلقة من سلسلة استجواب طويل مفهوم . جارتها لأوثق علاقتي بها فقدمت لها اعترافاً بعملى وسنى وبلدتي وحالتي الاجتماعية . فى أثناء ذلك رجعت الفلاحة من مشوار خارجى ، رأتنى فخفضت عينها ، أدركت حقيقة الموقف بنظرة واحدة ، ومضت متعثرة فى ارتباكها ، ولكن المدام لم تفتن بطبيعة الحال إلى ارتباكها ، ولا رأت توردها . وعندما تقدمتنى إلى الحجرة الخالية — آخر حجرة خالية مطلة على الشارع — كنا بمثابة صديقين ترجع صداقتهما إلى عهد غابر فى الزمان .

تفقدت الحجرة بارتياح ثم جلست على المقعد الكبير مستبشراً . عرفت من مجلسى — ودون سؤال — اسم الفلاحة وهى تنادى . وما لبثت أن دخلت حجرتى حاملة الملاءات والأغطية لتعد السرير . مضيت أراقبها بسعادة متفحصاً أجزاءها بعناية وشغف ، الشعر والقسمات والقامة . يا سيدى أبو العباس البنت جميلة ، جميلة لدرجة السحر ، وتملك شخصية أيضاً . أرادت أن تختلس منى نظرة ولكن عيني كانتا لها بالمرصاد . وابتسمت قائلاً :

— أنا سعيد يا زهرة ..

استمرت فى عملها كأنها لم تسمعنى فقلت :

— ربنا يطول عمرك فقد أرجعت إلى الريف الذى جئت منه ..

— ٢٢٣ —

ابتسمت فقلت :

— محسوبك سرحان البحيرى يا زهرة ..

فلم تملك أن سألت :

— بحيرى ؟

— من فرقاصة بالبحيرة ..

كتمت ضحكاتها وهى تقول :

— أنا من الزيادة ..

فهتفت بنشوة كأنما وحدة المحافظة معجزة قد وجدت لضمان

سعادتي وحبى :

— يا ربنا ..

وكانت انتهت من عملها فهمت بمغادرة الحجرة فرجوتها قائلاً :

— ابقى قليلا فلدى الكثير مما أود قوله .

ولكنها حركت رأسها بدلال برىء ثم ذهبت . سعدت بتنكرها

لرجائى واعتدته معاملة « خاصة » لا يمكن أن تعامل بها « زبونا »

مجردا . نعم إنها ثمرة ناضجة وما على إلا أن أقطفها ولكن جسمها برىء

فيما يبدو ولا علم لى باستعداداتها . إني أحبها ، ولا غنى لى عنها .

وددت أن يضمنا مسكن واحد بعيدا عن هذا البنسيون الذى لا يخلو

عادة من متطفلين ثقلاء .

* * *

على مائدة الإفطار تعرفت بعجوزين غريين . أكبرهما حى ميت ،

مومياء ، ولكنه لا يخلو من مرح ، وهو — كما قيل — صحفي قديم .
والآخر طلبة مرزوق ، ليس اسمه بالغريب على أذنى وإن كاد يمحي ،
وهو ممن وضعوا تحت الحراسة ، ولا علم لي بما جاء به إلى هذا
البنسيون . وقد أثار تطلعي من أول الأمر ، فكل شاذ مثير سواء كان
مجرما أو مجنونا أو محكوما عليه أو موضوعا تحت الحراسة . إلى ذلك كله
فقد كان من الطبقة التي علينا أن نرثها بطريقة ما . ها هو يخفي عينيه في
قدح الشاي ، متجنباً النظر نحوي ، عن حذر أو كبرياء . وتلاطمت في
نفسى — حياله — أحاسيس متباينة تتراوح ما بين الشماتة من ناحية
والرثاء من ناحية أخرى ، غير أن إحساسا منها استقر في وضوح وهو
ذعري الغريب من فكرة مصادرة الثروات ، كأنما أو من بأن من يقتل
مرة يعتاد القتل !.

وأراد عامر وجدى أن يجاملني فقال :

— يسرنى أنك من رجال الاقتصاد ، إن الدولة اليوم تعتمد أول ما
تعتمد على الاقتصاديين والمهندسين ..

تذكرت على بكير فلم أهناً بالثناء . وعاد العجوز يقول :

— على أيامنا كان جل اعتمادها على بلاغة البلاغ !

ضحكت هازئاً متوهماً أني بذلك أجاري رأيه غير أنه استاء فيما بدا
فأدركت أنه لم يكن ينتقد، ولكنه كان يؤرخ. وراح يقول مدافعاً عن جيله:
— يا بني . كان هدفنا إيقاظ الشعب ، والشعوب تستيقظ

بالكلمات ، لا بالمهندسين ولا بالاقتصاديين !

— ٢٢٥ —

وسرعان ما تراجع قائلاً في اعتذار :

— لو لم يقيم جيلكم بواجبه لما تحقق لجيلنا وجود !
وظل طلبة مرزوق ملازماً الصمت .

* * *

قلبي يستبعد براءته وفتوته . مثل هذا الصباح المشرق . مثل زرقه
البحر الصافية . مثل هذا الدفء المبارك . وحب الحياة يتردد مع
أنفاسي ، يجري مع ريقى ، ينبعث روى بفرح ونهم . عملت نهارة طيباً
بالشركة ثم تناولت الغداء مع صفية فى مسكنى القديم . نظرت إلى
يبصر فأسدلت على وجهى قناع الكآبة . شكوت إليها وحشة البنسيون
وبرودته . حياة لا تحتل يا عزيزتى ولذلك وصيت سمساراً بالبحث لى
عن شقة .

وترددت ألفاظ مألوفة مثل خسيس وابن حرام ، ولما آن لنا أن
نستريح بعد الغداء ساءلت نفسى متى أتححر من السخرة ؟ .
ولحت زهرة وهى تحمل القهوة إلى حجرة عامر وجدى . دقت
الساعة الكبيرة الخامسة مساء فطلبت قدحاً من الشاى . جاءتنى منورة
كالنرجسة . أو أغنية تتغنى بسواد الشعر وصفاء السمرة وشهد العين .
لمست يدها وأنا أنناول القدح وهمست :

— من أجلك سجنى نفسى فى هذه الحجرة ..

قطبت لتدارى عواطفها ثم استدارت لتذهب فقلت لها قبل أن تختفى
عن ناظرى :

— أحبك .. لا تنسى ذلك أبداً ..

(ميرامار)

— ٢٢٦ —

ولكنها استجابت لمحادثتي عصر اليوم التالى . رغبت أن أعرف عنها
أقصى ما يسعنى معرفته فسألتها :

— ماذا جاء بك من الريادية إلى هنا ؟

أجابت باللهجة الريفية الأليفة .

— الرزق ..

وحدثتني عن أهلها ، وظروف هربها ، والتجائها أخيرا إلى المدام
بوصفها عميلة أبيها . قلت بإشفاق :

— ولكنها خواجاية .. والبنيون كما تعلمين سوق !

قالت بثقة واعتزاز :

— عرفت الحقل والسوق !

ليست بالغرة ولا بالهشة . ولكن هل آخذ القصة بحرفيتها . إن اللاتي
يهربن من القرية إنما يهربن .. هه ؟! وقلت وأنا أرامقها مفتونا بها :

— حدث ذلك كله لكي نلتقى هنا !

رمتني بنظرة مستطلعة لا تخلو من ارتياح ولكنها ندية بالميل ،
فقلت :

— أحبك . هذا ما أود قوله ولا أمله يا زهرة ..

تمت :

— كفاية !

لن أكف حتى أسمع مثلها من شفتيك ، حتى تطمئنى إلى حضنى ..

— أهذا ما تفكر فيه ؟

— ٢٢٧ —

— لن يكون لشيء طعم حتى أناله ..

ذهبت بوجه صاف لا أثر فيه للكدر أو الغضب . هنأت نفسى على بلوغ المراد . ووجدتنى أجتر حنينى القديم إلى الزواج ، إنه لحنين قديم ، وقد فاض من جديد كنبع يتفجر . أود من أعماق يازهرة لولا .. أجل لولا ، سحقا للبدييات السخيفة القاتلة !

* * *

انضم إلينا شابان جديدان . حسنى علام ومنصور باهى . تطلعت إلى التعرف بهما بغريزة لا تنى عن الإكثار من المعارف والصحاب ، ودائما تنظر إلى الوجه الجديد بعين صياد . وحسنى علام من أسرة قديمة بطنطا ، وجيه من الوجهاء ، ومالك لمائة فدان ، جميل الوجه قوى البنيان ، كما يتمنى أى واحد منا أن يكون . وأنا قد أكره فكرة طبخته ولكنى أفتن بأى شخص منها إذا ساقتنى الظروف الممتازة إلى صحبتته . ومن السهل تخيل الحياة التى يمارسها شاب مثله رغم تغير الأحوال ، فإن يكن بعد ذلك كريما كما ينبغي له فحدث عن الليالى الملاح بغير حساب . أما منصور باهى فنوع آخر من الشبان . إذاعى بمحطة الإسكندرية وشقيق ضابط كبير من رجال الأمن . ذاك جميل ومفيد أيضا ولكنه يبدو ملتصقا بذاته فوق ما يتصور العقل . إنه تمثال دقيق جيد الصنع ذو ملاح بريئة لا يحظى بها عادة إلا طفل . أين يمكن العثور على مفتاحه أو الاهتمام إلى الدرب الضيق الوعر الموصل إلى قلبه . ما أكثر الذين يفدون من القرية سعيا وراء عمل ، وما أكثر المشكلات التى يتطلب حلها

الاستعانة بضابط كبير من رجال الأمن !

جذبتها من ساعدها بغتة . انتظرت حتى وضعت قدح الشاي على الترابيزة ثم جذبتها من ساعدها بغتة . اختل توازنها فتهافت على بمجلسي على المقعد الكبير فاحتويتها بذراعى وقبلت خدها — المتاح لى من وجهها — قبله خاطفة متوترة نهمة متعجلة . اعترضت ساعدى بيدين قويتين ثم تملصت منى . انتصبت متراجعة مقطبة . نظرت نحوها فى حذر وتوقع ثم ابتسمت مستعظفا . تجملت بالصبر فيما بدا . ثم راق وجهها وصفا كالبحر فى صباح خريف دميث . توسلت إليها بإشارة أن تقترب فلم تلب ولم تذهب . وثبت إليها محموما برغبة مجنونة فضممتها إلى صدرى بلا مقاومة تذكر ، لم التقت شفتانا فى قبله طويلة نهمة . وهمست فى أذنها ورائحة شعرها الآدمية تملأ أنفى :

— تعالى إالى ليلا ..

تفرست فى وجهى قليلا ثم سألتنى :

— ماذا تريد ؟

— أريدك أنب يا زهرة ..

لاحظت نظرة جادة فى عينها وهى تفكر ، فسألتها :

— ستأتين ؟

سألتنى بمرارة :

— ماذا تريد منى ؟



فاحتويتها بذراعي وقبلت خدها

— ٢٣٠ —

أفقت قليلا من سكرتي وقلت بحذر :

— نتحدث وتبادل الحب !

— لكننا نفعل ذلك الآن ..

— في عجلة وخوف يفسدان السرور !

— لا أرتاح لأفكارك !

— إنك تسيئين فهمي !

هزت رأسها كأنما تؤكد فهمها . وذهبت وهي تبتسم رغم ذلك .

داخلني حزن وتعاسة . جعلت أقول متحسرا : لو كانت من أسرة .. لو كانت على علم أو مال ! . وانهمر من لساني سيل من اللعنات ..

وكانت ليلة أم كلثوم .

نازعني المزاج إلى قضائها في بيت على بكير لتتلقى السماع في جو هادئ جدير به ، كما دعاني رأفت أمين إلى السماع في مسكنه ، ولكنني فضلت — بعد تفكير — السهرة في أسرة البنسيون لأوثق علاقاتي بأفرادها . رأيت صينية كبيرة مليئة بالشواء فتعجلت الشراب لأتزود بالشجاعة الضرورية للهجوم . وهيمن علينا جو أسطوري فأنشدت أسطورة عن « آل البحيري » ومركز وكيل الحسابات ، لا على سبيل الفخر الكاذب وحده — ولكن تمهيدا للطريق أمام الثروة المنتظرة من

— ٢٣١ —

مغامرة على بكير . وانقض علينا حديث السياسة كالقضاء المحتوم . أما سمعتم ؟ .. ما قولكم ؟ .. أتريدون رأيى صراحة ؟ . أدركت بالغريزة أننى ممثل الثورة ، مع احتمال مشاركة منصور فى ذلك . وانهال الشاء وتبادلنا الأنخاب . ولحت زهرة فقلت لنفسى إنها ممثلة الثورة الأولى ، وتذكرت كيف دعت لها أمامى مرة وكيف لفحنى صدق الدعاء وحامسه البرىء . ترى أيرتاب منصور باهى فى صدق ؟ . يا صاحبنى إنى بطبعى عدو أعداء الثورة ألا تفهم ؟ . وإنى من الموعودين ببركاتها ألا تفهم ؟

لقد أغلقت من الأبواب بقدر ما فتحت ..
— تذكر الملايين ثم احكم من جديد .
— حسن ، وما رأيك فى المنعمين الجشعين ؟
— رأيى أنهم أعداء للثورة فلا يحكم بهم عليها ..

وقد عشقت مدام ماريانا ، لا لأنها تحب غناءنا فحسب ولكن لخفة روحها ، ولأنها شريط مسجل يعيد ذكرياتها الخاصة بخين يونانى عتيد . ومن خلال ذكرياتها رأيت لمحات من جياق الخاصة ، كالحب القديم ، كحب الحياة الطيبة الناعمة . وهى ترجع فى الأصل إلى قوم مهاجرين ، والمهاجرون قوم وطنهم هو البلد الذى يوفر لهم السعادة . وعامر وجدى أثر قديم اكتشفه منصور باهى . فترة جذابة من

تاريخنا الذى لا نكاد نعرف منه شيئا .
وعندما نوه طلبة مرزوق بمآثر الثورة لم أملك إلا أن أحيى — فى
نفسى — نفاقه الممتع . واقتنعت بأن الإنسان رغم ابتكاراته
وانتصاراته ما زال غارقا حتى أذنيه فى الحماقة والسخف . ولعله من
المفيد أن نجمع الأعداء على فترات ليقضوا معا ليلا طويلا وهم يسكرون
ويطربون ويملاؤن أنفسهم بأعذب الألحان .

— إذن فأنت لا تؤمن بوجود الجنة والنار ؟
— الجنة هى المكان الذى يتمتع فيه الإنسان بالأمن والكرامة ، أما
النار فهى ما ليس كذلك ..

وعندما يضحك منصور لقفشاتي يتبدى كطفل رائع ، فراودنى أمل
بأننى سأهتدى إلى الدرب الموصل إلى قلبه ، وبأن صداقة حارة ترصدنا
فى نهاية السهرة . أما حسنى علام !، ليحيا حسنى علام، فقد قدم وحده
للسهرة زجاجتين من الديوارس . تسلطن على مقعده كعمدة ، يملأ
الكؤوس ويوزعها ، ويجلجل بضحكاته ، وعندما اختفى فجأة عقب
منتصف الليل منيت الجلسة بخسارة فادحة .
ولم أستمع بأمر كلثوم كالعادة ، ولا رددت معها بعض المقاطع ،
ولكن نشواتي تفاعلت كسيال كهربائى مع زهرة . عندما تجيء وعندما
تذهب ، وهى جالسة عند البارفان تتفرج على عربدتنا بعين داهشة

باسمة . وبالنظرات المختلصة تعانقنا ، وتبادلنا القبلات والأشجان .

* * *

لا شك أننى رأيت هذا الرجل من قبل . كلا كان مقبلا على التريانون من ناحية شارع سعد وكنت مقبلا عليه من ناحية الميدان . سرعان ما عرفت طلبة مرزوق ! . رأيت لأول مرة بملابسه الكاملة متدثرا بمعطفه والكوفية مغطيا رأسه بطربوش غامق الحمرة . صافحته بإجلال ثم دعوته إلى فنجال قهوة . أذعن لإلحاحى فجلسنا معا إلى مائدة خلف الزجاج المغلق المطل على البحر . كان الهواء يلعب بسعف النخيل المحقق بتمثال سعد وفي السماء غيم رقيق تضيء الشمس أطرافه بلون ماسى . تبادلنا حديثا عاديا لا معنى له ولا طعم ، ولكن حرصت طيلة الوقت على احترامه ومجاملته والتودد إليه . شئ فى أعماق قال لى إنه لا يمكن أن يكون خالى الوفاض تماما . أجل هناك طريقة أو أخرى ، ولعله يود أن يستثمر ما لديه ولكن الخوف يكبله . وقلت تفريعا عن حديث المعيشة :

— من العبث أن يعتمد شباب مثلى على مرتب وظيفته .

— وما حيلته فى ذلك ؟

خفضت صوتى كأنما أودعه سرى وأنا أقول :

— مشروع تجارى .. هذا ما أفكر فيه ..

— ومن أين لك بالمال ؟

فقلت وأنا أدارى أفكارى بابتسامة بريئة :

— ٢٣٤ —

- أبيع بضعة أفدنة ثم أبحث عن شريك ..
- ولكن هل يمكن أن تجمع بين الوظيفة والتجارة ؟
- قلت ضاحكا :
- على المشروع أن يبقى سرا من الأسرار .
- تمنى لى التوفيق ثم بسط الجريدة ليلقى عليها نظرة . كأنما قد نسى الموضوع تماما . جائز أن يكون صادقا ، ومحمّل أن تكون مناورة ، ولكن أدركنى إحساس باليأس منه .
- وأشار إلى عنوان أحمر عن ألمانيا الشرقية وقال :
- ولا شك أنك سمعت بعض ما يقال عن بؤس تلك المنطقة ، وبخاصة إذا قورنت بالمنطقة الغربية ..
- ها هو يتحدث فى السياسة الداخلية بلغة السياسة الخارجية . أجبته موافقا فعاد يقول :
- ليس لدى روسيا ما تقدمه إلى بلد يدور فى فلكها ، أما أمريكا ..
- ولكن روسيا قدمت لنا بالفعل مساعدات قيمة !
- فقال بعجلة :
- الوضع مختلف ، نحن لا ندور فى فلكها ..
- وبدا حذرا حتى ندمت على اعتراضى . وراح يقول :
- الحق أنهما — روسيا وأمريكا — سيان فى رغبة التسلط على العالم ، لذلك فموقف عدم الانحياز الذى اعتنقناه حكمة وأى حكمة ..
- أسفت على أنه أفلت من يدى ، وأنه لا سبيل إلى استرداد الأرض

— ٢٣٥ —

المفقودة قريبا . وقلت :

— الحق أنه لولا ثورة يوليو لاجتاحت البلد ثورة دموية لا تبقى

ولا تذر !

فوافقنى بطربوشه وهو يقول :

— الله كبير ، وقد أنقذنا بحكمته !

أين كنت ؟ . لم تشرفنا منذ ثلاثة أيام . كيف تذكرتنى أخيرا ؟ .
لماذا تعود إلى الأشياء القديمة الموضوعة على الرف ؟ . ألم أقل لك إنك
خسيس وابن حرام ؟ . لا توجع رأسى بالأعذار السخيفة . لا تحدثنى
عن عملك الخطير بالشركة . لو كان لوزير رفيقة لما أهملها كما تهملنى .
جعلت أبتسم وأصب البيذ فى كوين وباطنى يضيق بها لحد التقزز . ها
هى تلعب معى دور الطاغية فلا بد من التخلص منها . يجب أن أتحرر منها
إلى الأبد . ولكن انجابت هموم الأرض عن صدرى ، انجابت جميعا
بمقدم زهرة حاملة الشاى إلى . تعانقنا طويلا . قبلت شفيتها وخديها
وجبينها وعنقها . استمتعت بشفتيها بوعى مركز وهى تطبع شفيتها على
شفتى . ثم أبتعدت قيراطين عنى وهى تنهد وتقول هامسة متشكية :

— يخيل إلتى أحيانا أنهم يعرفون ..

فقلت باستهانة ممسوس بنشوة الحب :

— لا يهمك ..

— أنت لا يهمك شىء ولكن ..

— ٢٣٦ —

— يهمنى شىء واحد يا زهرة ..
ورنوت إليها مليا لأترجم لها ما أعنيه بعينى ثم قلت برغبة صادقة :
— لنعش معا بعيدا عن هنا !
فتساءلت بارتياح :
— أين ؟
— فى مسكن خاص بنا ..
لاذت بصمت متلهف على مزيد من القول ، ولما لم تلق منى ما يشبع
لهفتها غامت عيناها بخيبة أمل ، وتساءلت :
— عم تتحدث ؟
— إنك تحبيننى كما أحبك ...
قالت بصوت خافت :
— أنا أحبك ولكنك لا تحبنى ..
— زهرة !
— إنك تنظر إليّ من فوق كالأخرين ..
قلت بصدق كامل :
— إني أحبك يا زهرة ، من كل قلبى أحبك والله شهيد .
فكرت قليلا بكدر ثم ساءلتنى :
— أتعبرنى إنسانة مثلك ؟
— وهل فى ذلك من شك ؟
هزت رأسها نفيا . أدركت بطبيعة الحال ما يدور بخلدتها فقلت :

— توجد مشاكل لا حل لها ..

واصلت هز رأسها مقطبة هذه المرة عن غضب وقالت :

— واجهتني مشاكل كذلك وأنا في القرية ولكنني لم أخضع لها ..

لم أتصور أنها معترزة بنفسها لذلك الحد . شعرت بأن الحب يجرفني معه إلى الهاوية فغرزت قدمي في الحافة راميا بثقلي إلى الوراء . تناولت يدها بين يدي ، قبلت ظهرها وبطنها ، وهمست في أذنها :

— أحبك يا زهرة ..

كلما نظرت إلى وجه حسنى علام القوى الجميل حلمت بالليالي الملاح . ولكنني علمت ذات يوم بالمشروع الذي جاء الإسكندرية من أجل دراسته وتنفيذه فتغيرت نظرتي إليه . طلبة مرزوق وهم مناقض للواقع ومن المستحسن أن أسقطه من الحساب أما حسنى علام فرجل قد عقد العزم على العمل ، وعلى أن أجد لنفسى دورا في ذلك المشروع . ليس الأمر مجرد عمل ونجاح ولكنه قد ينقذني في اللحظة الأخيرة من أفكار على بكير الجهنمية . المؤسف حقا أن حسنى علام مثل الزئبق لا يسهل القبض عليه . إنه يتحدث أحيانا عن المشروع ولكنه يهيم على وجهه طيلة الوقت دافعا بسيارته في سرعة جنونية ولا يخلو المقعد جنبه من امرأة . قلت له مرة :

— الرجل العملي لا يضيع وقته في اللهو .

فضحك وسألني :

— ٢٣٨ —

— كيف يضيعه إذن ؟

فقلت بلهجة من يغير على مصلحته :

— يدرس ويفكر ثم ينفذ .

— جميل ما تقول ، ولكنى لا يحلو لى الدرس والتفكير إلا وأنا أهو !

ثم وهو يقهقه :

— نحن نعيش الأيام التى تسبق مباشرة يوم القيامة !

تركته وأنا أحدث نفسى قائلا : « يا ربى .. أريد أن أفيد وأن

أستفيد فما عسى أن أصنع ؟ » .

* * *

تطائرت الشتائم بيننا كالأحجار أو كالشظايا . وصحت غاضبا :

— كل مرة !.. هو حساب الملكين !؟

وتطائرت الشتائم بيننا . وقد ذهل محمود أبو العباس الذى صحبنى

إلى بيتها ليأخذ درسه الثالث فى الحساب ومسك الدفاتر . وقمت

مصمما على الذهاب فمضى الرجل معى . وعند باب العمارة رجوته أن

يرجع فيعلنها بأننى قررت الذهاب بغير رجعة .

ومضيت إلى ميرامار ولكننى لم أدرك أننى مطارداً إلا وزهرة تفتح لى .

الباب . عند ذاك شعرت بيد تقبض على قفاى وصوت صفية يزعق :

— تريد أن تهجرنى ؟.. تظننى طفلة أو لعبة !؟

تخلصت منها بجهد ولكنها كانت قد اقتحمت الشقة . قلت لها هامسا

ولاهاثا :

— ٢٣٩ —

— اذهبي .. الناس نيام !
فصرخت بصوت غليظ :
— تنهني وتهرب !.. أكلتك وشربتك وكسوتك وتريد أن تهرب
يا بن الحرام !
لطمتها فلطمتنى . اشتبكنا فى صراع مرير . حاولت زهرة
التخايف بيننا فلم تفجح فقالت لها :
— من فضلك .. هذا بيت محترم ..
ولما لم يجد القول صاحت بها :
— اذهبي وإلا استدعيت البوليس !
تراجعت خطوة وهى تلتفت نحو زهرة . دهشت لمنظرها .
رددت عينيها بينى وبينها ، ثم هتفت بها بعجرفة :
— أنت يا خدامة كيف ..
قبل أن تكمل عبارتها كانت يد زهرة قد صكت فاهها . انقضت على
زهرة فأنهالت عليها لكلمات الفتاة القوية حتى انهارت أو كادت .
واستيقظ البنسيون ففتحت الأبواب ودبت الأقدام ، وإذا بحسنى علام
يسبقهم إلينا فيأخذ صفيحة من يدها ويذهب بها خارجا .
ذهبت إلى حجرى أعمى من الغضب . لحقت لى المدام وهى
تساء عما جرى فى انزعاج . أعلنت لها أسفى ولكنها سألتنى :
— من هى ؟

— ٢٤٠ —

قلت مختلفا كذبة إنقاذا للموقف :
— كانت خطيبتى ثم فسخت خطبتها !
قالت وهى تهز رأسها :
— إن سلوكها يثبت أنك كنت على حق فى معاملتها ولكن ..
وسكتت لحظات ثم استأنفت قائلة :
— ولكن أرجو أن تسوى حسابك معها بعيدا عن هنا !
ثم قالت وهى تغادر البنسيون :
— إلى أعيش بفضل سمعتي الطيبة !
ولما جاءت زهرة فى موعدها كان وجهها ما يزال منطبعاً بآثار
الحادث ، وقد شكرتها ، واعتذرت لها عما أصابها . تبادلنا نظرات
عميقة أليمة حتى اضطررت أن أقول لها :
— لقد هجرتها من أجلك ..
سألتنى بخشونة :
— من هى ؟
— امرأة ساقطة ، من الماضى ، اضطررت إلى أن أكذب على المدام
فأقول لها إنها كانت خطيبتى !
لثمت خدها فى امتنان وأسف ..

صوت الريح ينطلق فى الخارج كرعد متصل ، جو الحجرة يقطر
عصارة المساء رغم أن النهار لم يشارف الأصيل بعد ، فتخيلت الغيوم

— ٢٤١ —

المتراكمة في السماء وتخلت جبال الأمواج . ولما جاءت زهرة — ولم
أكن رأيتهما منذ لقاء أمس — أضاءت المصباح . كنت أعاني انتظارها طيلة
الوقت فبادرتها بحرارة ورجاء :

— لنذهب يا زهرة !

وضعت القدح على الترابيزة وهي ترمقني بعتاب مر فقلت :

— سنعيش معا إلى الأبد ، إلى الأبد ..

سألتني متهمكة :

— ولا توجد مشاكل في تلك الحال ؟

أجبت بصراحة مؤسفة :

— المشاكل التي أعنيها إنما يخلقها الزواج !

تمتت بغضب مكتوم :

— يجب أن أندم على حبى لك ..

فقلت بحرارة وصدق وإخلاص :

— لا تقولى ذلك يا زهرة ، عليك أن تفهمينى ، أنا أحبك ، ومن

غير حبك فلا معنى للحياة ولا طعم ، ولكن الزواج سيخلق لى مشاكل

من ناحية الأسرة ومن ناحية العمل ، إنه يهدد مستقبلى فضلا عن أنه

سيهدد حياتنا المشتركة ، فما العمل ؟

قالت بغضب أشد من الأول :

— لم أكن أعرف أننى يمكن أن أخلق جميع تلك المصائب :

— ليس أنت ، لكنه الغباء ، الحواجز الصلبة ، الحقائق العفنة ، ما العمل ؟

(ميرامار)

— ٢٤٢ —

ضيق عينيها بحلق وقالت :

— ما العمل حقا ؟ .. أن تجعل منى امرأة مثل امرأة أمس !

هتفت بيأس :

— زهرة .. لو كنت تحبيننى كما أحبك لفهمتنى بوضوح لا لبس

فيه !

فقالت بحدة :

— إني أحبك ، خطأ لا حيلة لى فيه .

— الحب أقوى من كل شىء ، من كل شىء ..

فاعترضت ساخرة :

— لكنه ليس أقوى من المشاكل !

تبادلنا نظرات صامتة . أنا محموم يائس وهى عنيده غاضبة . ولولا

قوة إرادتى ، أو لولا خوفى لانهرت تماما . وفكرت بسرعة أشد من

البرق ثم قلت :

— زهرة ، توجد طرق وسطى ، مثل الزواج الإسلامى الأصلى !

حل التساؤل فى عينيها محل الغضب فقلت وأنا لا أعرف عن

الموضوع أكثر من ذكريات غامضة :

— نتزوج كما كان يتزوج المسلمون الأوائل ..

— كيف كانوا يتزوجون ؟

— أعلن بينى وبينك أننى أقبلك زوجة على سنة الله ورسوله !

— بلا شهود ؟

— ٢٤٣ —

— أمام الله وحده !
 فقالت محتجة في استياء :
 — جميع من حولنا يتصرفون وكأنهم لا يؤمنون بأن الله موجود !
 ثم هزت رأسها وقالت بإصرار :
 — لا ..

* * *

هي عنيدة كالصلب . ليست رحلة سهلة كما حلمت . ويئست من إقناعها تماما . إني على استعداد — إذا وافقت — أن أعاشرها إلى الأبد مضحيا بالزواج وآمالى المعقودة عليه . وفكرت أن أهجر البنسيون كخطوة أولى للنسيان ولكن حبها بقى عنيدا — مثلها — ومتشبشا بقلبي . ولم تقع بيننا جفوة . كانت تهيئنى بالشأى فى وقته ولا تصدنى إذا قبلتها أو ضممتها إلى صدرى . وقد أذهلنى أن أراها — فى المدخل — مكتبة على كتاب المطالعة لتلاميذ السنة الأولى الابتدائية . ثبتت عيناى عليها غير مصدقتين . وكانت المدام جالسة تحت العذراء كما كان عامر وجدى مستسلما للقوتيل ، فقالت لى المدام باسمه :

— انظر إلى التلميذة يا مسيو سرحان !
 وألقت عليها نظرة تشجيع وهى تقول :
 — اتفقت مع جارتنا المدرسة .. ما رأيك ؟
 إنه لحدث . أو شكت لحظة على الضحك ولكن سرعان ما أخذت به فقلت بحماس :

— برافوا !.. برافو زهرة !

وكان العجوز يرمقني بعينييه الغائمتين فداخلنى منه خوف لا أدريه
فغادرت البنسيون . بلغ بى التأثير مبلغا هز أعماق . وصوت باطنى قال
لى إننى إذا استهنت بحب الفتاة فإن الله لن يبارك لى قط . ولكننى لم
أهادن فكرة الزواج المرعبة . الحب عاطفة يمكن معالجتها على نحو أو
آخر . أما الزواج فهو مؤسسة ، شركة كالشركة التى أعمل وكبلا
لحساباتها ، له لوائح ومؤهلات وإجراءات . إذا لم يرفعنى من ناحية
الأسرة درجة فما جدواه ؟. إذا لم تكن العروس موظفة على الأقل
فكيف أفتح بيتا جديدا يستحق هذا الاسم فى زماننا المتوحش العسير ؟
أما مرجع تعاستى فهو أننى أحب فتاة غير مستوفية لشروط الزواج .
ولو قبلت حبنى بلا قيد لضحيت فى سبيلها بالزواج الذى أحن إليه منذ
البلوغ !

— همتك عالية يا زهرة !

قلت لها ذلك وأنا أرمقها بإعجاب ، ثم قلت بأسف :

— ولكنك ترهقين نفسك وتبددين أجرك !

قالت بكبرياء وهى واقفة أمامى تفصل بيننا الترابيزة :

— لن أبقى جاهلة !

— وما فائدة العلم ؟

— سأتعلم بعد ذلك مهنة فلن أبقى خادمة ..

عض الألى لم قلبى وعقل لسانى ، أما هى فقالت بنبرة جديدة :

— ٢٤٥ —

— جاء أهلى اليوم ليقنعونى بالرجوع إلى القرية !
رفعت إليها عيني مستطلعا وأنا أدارى قلقي بابتسامة فتجاهلتنى
خافضة جفنيها .

— وماذا كان جوابك ؟
— اتفقنا على الرجوع فى أوائل الشهر القادم !
قلت بجزع :

— حقا ..! ترجعين إلى العجوز !؟

— كلا ، لقد تزوج !

• ثم بصوت خافت :

— تقدم لى رجل غيره .

قبضت على يدها بشدة وتوسلت قائلاً :

— لنذهب معا ، غدا ، اليوم إن شئت ..

— اتفقنا على الرجوع أول الشهر ..

— زهرة هل قد قلبك من حديد ؟

— إنه حل بلا مشاكل !

— ولكنك تحبيننى يا زهرة !

فقالت بامتعااض :

— الحب شىء والزواج شىء آخر ، أنت علمتنى ذلك .

عند ذاك خانتها شفتاها فوشتا بابتسامة خفيفة فهتفت :

— يا لك من شيطانة يا زهرة !

وغمرنى فيض من الارتياح والفرح . ودخلت الحجرة عند ذاك المدام وهي تحتسى الشاي من قدح في يدها . جلست على حافة الفراش وهي تقص على قصة أهل زهرة وكيف رفضت الفتاة العودة . وتساءلتُ بمكر كاذب :

— ألم يكن من الأفضل أن ترجع إلى أهلها ؟

فابتسمت المدام ابتسامة قوادة عالمة ببواطن الأمور ثم قالت :

— أهلها الحقيقيون هنا يا مسيو سرحان !

تجنببت النظر إلى عينيها . تجاهلت مغزى قولها تماما . ولكنني تخمنت أن الفراشة تطير بالأنباء من حجرة إلى حجرة . ولعل سوء ظنها قد جاوز الحدود . ووجدتني في النهاية سعيدا بنصر وهي أما في الواقع فإن العناد الذى سد في وجهي باب الأمل لم يلن لحظة واحدة . وساءلت نفسي متى أجد الشجاعة لأهجر البنسيون نهائيا ؟!

بدا المنظر مألوفا وفاترا إلى حد ما . المدام تجلس لصق الراديو تكاد تطرح رأسها وهي تتابع أغنية أفرنجية . أما عامر وجدى فقد راح يسمع لزهرة بعض الكلمات . ودق الجرس فإذا بالقادمة مدرسة زهرة . معذرة .. الشقة مزدحمة بالضيوف ، فإذا سمحتم أعطيت الدرس هنا . كرم منها بلاريب . واستقبلناها بترحاب وأدب . وهي وسيمة وأنيقة وموظفة . راقبتها وهي تدرس لزهرة ، ووجدتني منساقا للمقارنة بينهما بتأمل وأسى . هنا الفطرة والجمال والنمق والجهل وهناك الثقافة والأناقة



فقبت وراء الزجاج بمقهى الميرamar أراقب السحب وأنتظر

والوظيفة . آه لو تحل شخصية زهرة فى بيئة الأخرى وإمكاناتها .
وتطفلت المدام على الدرس لتشيع حب استطلاعها الأبدى فعرفنا الاسم
والأسرة وحتى الأخ المتدب للعمل فى السعودية . وإذا بى أسأها :
— أمن الممكن أن يرسل لنا بعض البضائع النادرة من هناك ؟
فأجابت فى تحفظ بأنها ستسأل عن أماكن ذلك .
وغادرت البنسيون إلى كافية دى لا بيه لمقابلة المهندس على بكير .
نظر إلى بثقة وقال :

— كل خطوة ترسم بدقة ، والنائج مضمونة !
حسن ، فلنشب وثبة موفقة تجعل من زيارتنا للعالم رحلة لها معناها
وقيمتها . ثم سألنى على بكير :

— قابلت صفية بركات فى ديليس فهل حقا ؟..
قلت بامتعاض :
— عليها اللعنة !

ضحك وهو ينظر فى عينى باهتمام ثم عاد يسألنى :
— ولكن هل هجرتها حقيقة من أجل ؟..
— لا تصدقها من فضلك ، متى كانت ممن يعتمد الإنسان على
صدقهن ؟!

فازداد اهتماما وتفكيراً وهو يقول :
— إن سرنا من الأسرار التى يضمن بها حتى على الزوجة والابن !

فهتفت به مؤنبا :

— الله يساعلك !

* * *

قلت لنفسى يا للعجب . إنها نظرة يطيب بها غرور الرجل . لم تلح فيها ابتسامة ولا رخش هذب ، ولكنها — المدرسة — حولت رأسها بغتة عن زهرة وكتابها ورشقتنى بها . لم تدم أكثر من ثوان . هربت إلى غفلة من زهرة وعامر وجدى . لم تدم أكثر من ثوان . وقد أتلقى عشرات مثلها فلا تهزنى شعرة وأعتدها نظرة عابرة ، غير أنها عكست ومضة معبرة لا توصف وكأما أبلغتني رسالة كاملة . غيرت خط سبرى فقبعت وراء الزجاج بمقهى الميرامار أراقب السحب وأنتظر . تدبير بلا هدف ، وليس وراءه عاطفة ، ولكنه تطلع — من فراغ ويأس — إلى مغامرة ، أية مغامرة . ولم تكن بالمثال الذى يمكن أن يفتنى ولا حتى يثيرنى ولكنها — فيما بدا — دعتنى إلى نزهة فى يوم عطلة شديد الملالة . وإذا بها تمر أمام المقهى واضعة يديها فى جيبي معطفها الرمادى . تبعتها عن بعد حتى لحقت بها فى أثنيوس . ابتاعت بعض الحلوى ووقفت كالترددة فاقتربت منها وحييتها . ردت التحية فدعوته إلى قدح شاي فقالت لى إنها كانت تفكر فى الجلوس بعض الوقت . احتسينا الشاي وتناولنا قطعتين من الجاتوه ، ثم دار حديث تعارف سطحى ولكن لا يخلو من معلومات مفيدة عن الأسرة والعمل . وسياق الحديث وحده هو الذى جعلنى أطلب بموعد قريب . وتقابلنا فى بوفيه سينما أمير ، ثم

— ٢٥٠ —

شهدنا الفيلم معا ، وكان على أن أحدد نوع المغامرة ولونها ، ولم أجدها بالقياس إلى قلبي جديرة بالمشاهدة والتعب ، ورغم ذلك فعندما دعتنى إلى زيارة أسرتها قبلت !. أدركت أنها تبحث عن زوج . وزنتها بعقل بارد ، قدرت المرتب والدروس الخصوصية وتذكرت في ذات الوقت يأسى المتزايد من زهرة ، وفي أسرتها عثرت على إغراء جديد وهى ملكية والديها لعمارة متوسطة بكرموز . وجدتنى أفكر فى الأمر بمجدية لا طمعا فى مالها ولا حبا فيها ولكن انسياقا لحنينى القديم إلى الزواج . وزهرة ؟! . قد أجد شيئا من عزاء عن غدرى بها فى الزواج نفسه الذى سيربطنى إلى الأبد بامرأة لا أحبها ، ولكن هل أستطيع حقا أن أقهر الحب المشبوب فى قلبي ؟!

أشار إلى راجيا أن أنتظر . كنت هممت بالانصراف بعد شراء الجريدة وكان يحاسب زبونا ، فلما فرغ منه أقبل علىّ وهو يقول :

— أستاذ .. سأخطب زهرة !

داريت انزعاجى بابتسامة وسألته :

— مبارك ، هل تم الاتفاق بينكما ؟

أجاب منتفخا بالثقة :

— تقريبا !

نبض قلبي بألم أليم وأنا أسأله :

- ماذا تعنى بقولك « تقريبا » ؟
- هى زبونة يومية ، لم نظرق الموضوع صراحة . ولكنى خير من يفهم النسوان !
- كرهته فى تلك اللحظة لحد الموت ، أما هو فسألنى :
- ما رأيك يا أستاذ فى أخلاقها ؟
- طيبة جدا والحق يقال .
- سأخطبها من مدام ماريانا حتى أهتدى إلى أهلها .
- تمنيت له التوفيق ثم ذهبت ولكنه لحق بى بعد خطوتين وهو يسأل :
- ماذا تعرف عن الخلاف بينها وبين أهلها ؟
- كيف علمت به ؟
- أنبأنى به عامر بك ، العجوز ..
- جملة ما أعرفه أنها عنيدة وأبية النفس .
- فضحك وهو يقول فى مباهاة :
- إنى أعرف الدواء لكل داء ..

- كانت خطبة .. وكان رفض .
- وبقدر ما أرضانى ذلك بقدر ما ضاعف من إحساسى بالمسئولية .
- مزقنى القلق ، اجتاحنى الحب ، تراجعت عليه من مقدم الصورة حتى لاحت خلفية باهتة .
- وقبضت على معصمى زهرة بحنان وضراعة وقلت بجرارة وتوسل :

— ٢٥٢ —

— أنقذني .. ولنذهب في الحال !

تخلصت مني بجفاء وهي تقول :

— لا تعد إلى ذلك ، إني أكره سماعه !

لن نتلاقى أبدا . هي تحبني ولكنها ترفض التسليم بلا قيد ، وأنا أحبها ولكني أرفض القيد . ولا هذا ولا ذاك بالحب الحقيقي الذي تمحي عنده الإرادة والعقل .

وقد دعاني السيد محمد والد عليّة للغداء فلبيت الدعوة . ودعوت الأسرة في نهاية الأسبوع للعشاء في باستوريدس . انقلب الجو بعد أن استقر بنا المجلس فصفرت الريح وانهمر المطر . ومضيت أقنع نفسي طوال الوقت بأن عليّة فتاة ممتازة وأنها تعد بزواج موفق . وسيمة .. أنيقة جدا .. موظفة .. مثقفة .. ماذا تريد أفضل من ذلك ؟. ولو لم أرق في عينيها .. ، مالى أتحفظ لهذا الحد ؟ ، إنها تحبني بلا ريب ، الرغبة في الزواج راغبة في الحب أيضا . ثم ما هذا الذي يعدنا بالفراديس دون أن يفى ولو بشيء من وعده ؟. واشتدت العاصفة في الخارج حتى خيل إلى أنها ستقلع المدينة الجميلة من جذورها فتضاعف شعورنا بنعمة الدفء والأمان في الداخل . وقلت لنفسي إننى اقتحمت أبواب هذه الأسرة المحترمة مدفوعا بانفعالات عفوية ولكن بلا خطة موضوعة أو نية صادقة ، وبلا إمكانية مالية مناسبة ، وأن على أن أصارحهم بحقيقة مركزي وبمسئوليتي العائلية تاركا لهم بعد ذلك الخيار . وقد جر الحديث المتشعب إلى « الزواج » كموضوع عام فقال والد عليّة :

— ٢٥٣ —

— على أيامنا كنا نتزوج مبكرين فنهأ برؤية أولادنا وهم رجال
مستولون !
فحركت رأسى حركة تنم عن الحسرة وأنا أقول :
— تلك أيام خلّت ، أما هذه الأيام فهى منحوتة من العسر
والصخر ..
فمال نحوى قليلا ثم قال بصوت كاهمس :
— ابن الحلال ثروة فى ذاته ، وعلى الأمناء من الناس أن يدللوا له
العقبات ..

يا له من وجه مكفهر . كان قد انتبه إلى اقتراى من معرضه وأنا على
بعد خطوتين منه فسرعان ما اكفهر وجه . رمأى بنظرات غاضبة حتى
عجبت لشأئه . ثم تساءل متكهما دون أن يقدم لى الجريدة كعادته كل
يوم :

— لم أخفيت عنى أنك عشقتها ؟
بوغت بقوله ، ولهفته الوقحة ، وهتفت به :
— أنت مجنون !
فصاح لى :
— أنت جبان !

فقدت صوابى فلطمت وجهه بظهر كفى . وإذا به يهوى براحته
الكبيرة على خدى . وتبادلنا الضرب بلا وعى ولا رحمة حتى فرق

الواقفون بيننا . انفصلنا ونحن نتبادل أفدع الشتائم . وسرت وقتنا على غير هدى وأنا أسائل نفسي عمن وضع تلك الفكرة الخبيثة في رأسه الخاوى .

وقد مضى زمن طويل قبل أن أراه مرة أخرى . دخلت آنذاك لأتناول عشاء خفيفا في مطعم بانيوتى فوجدته جالسا في مقعد صاحب المحل وراء صندوق الماركات . هممت بالتراجع فوثب من مجلسه إليّ ثم احتوانى بين ذراعيه وهو يقبل رأسى ، وأبى إلا أن يدعونى للعشاء على حسابه ! . واعتذر إليّ عما سلف ثم اعترف لى بأن حسنى علام هو الذى افترى على تلك الكذبة !

— عزيزتى .. أرجو ألا تعلم زهرة بما بيننا !
 كنا نجلس على شاطئ المحمودية بكازينو البالما تحت الشعاع الدافئ . وكان اتصالها المنتظم بزهرة يقلق خيالى . إنها لا تدرى شيئا عن الأسباب الحقيقية التى ساقطت زهرة إلى التلمذ عليها ، كما أن زهرة لا تتصور أن مدرستها قررت الاستيلاء على رجلها . وقد رمقتنى عليه بارتياح وهى تسأل :

— لم ؟

— إنها ثرثرة ! .. والثرثرة غير مستحبة فى اللحظة الراهنة من علاقتنا ..

لم تزايل الريبة نظراتها وقالت :

— ٢٥٥ —

— ولكن علاقتنا ستعرف عاجلاً أو آجلاً ..

فقلت بصراحة فجأة :

— يخيل إلى أحياناً أنها تنظر إلى نظرة خاصة ..

قالت وهى تبسم ابتسامة شاحبة فاترة :

— لعل لديها من الأسباب ..

فقلت بجدية :

— جميع النزلاء يمازحونها أحياناً ، وقد فعلت مثلهم ، هذا كل ما

هنالك ..

كانت العلاقة قد تطورت من ناحيتها إلى حب . ولم يكن يهمنى أن
تصدقنى بالكامل بقدر ما يهمنى أن تأخذ حذرهما من زهرة ! . وإذن فقد
انتصر العقل على القلب ولم يبق إلا أن أعلن الخطبة . على ذلك ترددت ،
وجعلت أو جل اليوم الموعود بحجة الرجوع إلى القرية ليلعب الأهل
دورهم التقليدى . وكلما مر يوم توترت مشاعرى حيال زهرة وحز فى
نفسى غدرى المخزى بها . وكنت أتنهد بحسرة وأقول : آه لو تلين .. لو
تدعن .. فأهبها قلبى إلى الأبد ..

* * *

رعد ١.. زلزال ٢.. مظاهرة ٣.. سقوط جسم بالحجرة ١٢

أخرجت رأسى من تحت الغطاء إلى ظلام دامس . أنا هو أنا .. هذا
فراشى بينسيون مرامار .. ولكن ما هذا ٣.. ربه .. إنه صوت
زهرة .. إنه يطرق باني .

هرعت إلى الخارج . رأيتها على ضوء المصباح السهرى مشتبكة مع
 حسنى علام فى صراع مميت . من نظرة واحدة أدركت حقيقة الموقف
 كله . أردت أن أنقذها بلا فضيحة ومع الإبقاء على علاقتى بحسنى
 وضعت يدى على كتفه برفق هامسا :

— حسنى !

لكنه لم يسمعنى فشددت على كتفه وأنا أقول بنبرة أقوى :

— حسنى .. أجننت !؟

دفعنى بظهره بوحشية ولكنى قبضت على منكبه وقلت له بحزم :

— ادخل الحمام وضع إصبعك فى فمك !

وإذا به يستدير نحوى ويلطمنى على جبهتى . جننت من الغضب
 فانهلت عليه ضربا . ولم يقف الضرب بيننا حتى أدركتنا المدام . وقد
 عاملت المدام المعتدى برفق لا يستحقه . إلى أفهم العجوز جيدا . من
 خلال نفسى أفهمها حقا . كلانا حام حول حسنى ممنى النفس
 بالاستفادة من مشروعه الخيالى . وهى مترددة تقدم رجلا وتؤخر
 أخرى ، وأنا متحفز طيلة الوقت للوثوب . ها هو الباب يغلق فى وجهى
 نهائيا ، أما هى فتكاد تعنف المضروب من أجل خاطر الضارب .

وعقب ذلك بأيام رأيته — حسنى علام — خارجا من الجنفواز
 حوالى الواحدة صباحا مصطحبا معه صافية بركات . لم أدهش إلا قليلا
 ثم تذكرت يوم مضى بها من البنسيون . إنها تماثله فى التهور والحلم
 بالمشاريع ، وسيجمع بينهما الحب والأحلام . وكنت — تلك الليلة —

— ٢٥٧ —

قد سهرت في حانة جورج مع علي بكير ورأفت أمين . وسرنا في الكورنيش متشبعين بصفاء الجو وحرارة الخمر . ولا حديث لرأفت أمين — وبخاصة إذا سكر — إلا الوفد . وقد وضع لي علي بكير لا يكاد يعرف الفارق بين الوفد والنادي الأهلي . من ناحية أخرى لم أكن أهتم في أعماقي بالسياسة رغم نشاطي الموفور فيها .
أما رأفت أمين فراح يتحدث بلسان مخمور عن الوفد وأيامه وسأله ساخرا :

— ألا تعترف بالموت ؟

فقال بصوت دوى في الطريق الخالية :

— قل في الثورة ما تشاء ، لا أنكر قوتها الشاملة ، ولكن الشعب مات بموت الوفد !

عند ذلك وقع بصرى على حسنى علام وصفية بركات وهما ينحدران إلى الكورنيش كدئين قوين ، قلت ضاحكا وأنا أشير إليهما من بعيد :

— ها هو شعب الوفد يواصل جهاده بعد منتصف الليل !

وعندما آن لنا أن نفترق همس علي بكير في أذني :

— عما قريب سنعطى إشارة البدء في العمل .

* * *

دخلت البنسيون والنوم يخيم على أرجائه . وتراءى لي باب منصور باهى الزجاجى وهو ينضح بالضوء فاندفعت بسحر الخمر إلى (ميرamar)

— ٢٥٨ —

الاستئذان فالدخول ، بلا باعث حقيقى . نظر إلى بشىء من الدهشة
وهو جالس على المقعد الكبير . تتجلى في عينيه الصغيرتين الجميلتين كآبة
وتفكير . قلت وأنا أتخذ مجلسا على كرسي قريب :

— لا تؤاخذنى .. أنا سكران !

فقال دون مبالاة :

— هذا واضح ..

ضحكت ، ثم قلت معاتبا :

— الحق أنى عجزت عن جذبك إلى ، يبدو أنك شديد الانطواء !.

أجاب بأدب ولكن دون تشجيع ما :

— لكل طبعه ..

— لا شك أن رأسك يرهقك !

أجاب بغموض :

— الرأس أصل البلاء !

فقلت ضاحكا :

— طوبى لنا نحن أصحاب الرعوس الفارغة !

— لا تبالغ فإنك مركز نشاط لا يخذ ..

— حقا ؟.

— نشاطك السياسى .. أفكارك الثورية .. غرامياتك !

صدمتنى العبارة الأخيرة من قوله ولكن ضاعت الصدمة في مد

الموجة الخمرية . ووضح لى أنه لا يرحب لى — إنه لا يرحب بأحد —

فصافحته ثم ذهبت .

* * *

عندما تجي زهرة إلى حجرتي بالشاي أتخلي عن أفكاري ومشروعاتي
ويتفرغ قلبي للحب الحقيقي وحده . ولكن وجهها تبدى صلبا
متحجرا مصفرا من الغضب . ونظرتها الثابتة الكالحة المتحفزة المخيفة
ملأت قلبي بالقلق والتشاؤم . قلت بإشفاق :

— زهرة .. لست كعادتك !

قالت بحنق مفترس :

— لولا أن الله حكّمته التي هي فوق العقول لكفرت !

ماج صدرى بالقلق فسألتها :

— هل من هم جديد يضاف إلى همومنا المستعصية ؟

قالت باقتضاب وازدراء :

— بعيني رأيكما ..

عرفت من تعنى فغاص قلبي في هاوية عميقة من صدرى وسألت
بيأس :

— من تعنين ؟

— الأستاذة !

ثم بضراوة وحقد :

— الخطافة الداعرة ..

ضحكت . يجب أن أضحك . وأن أضحك ضحكة الاستهانة التي

— ٢٦٠ —

نواجه بها عادة غضبه خاطئة في غير محلها . ضحكت وأنا أقول :

— يا لك من .. صادفت أستاذتك في طريقى فأدبت لها ما ..
قاطعتنى بقسوة :

— كذاب .. لم تكن مصادفة .. وقد عرفت ذلك منها اليوم !
هتفت بانزعاج :
— لا !

— اعترفت الخنزيرة بمقابلتك ، ولم يدهش أحد من والديها ،
ولكنهم دهشوا جميعا لتطفلى أنا !

خرست ، خرست تماما ، وقالت هى بتقزز وغضب :

— لم يخلق الله أمثالك من الجبناء ؟

انهزمت .. تهدمت .. ومن أعماق هاوية اليأس توسلت إليها
قائلا :

— زهرة !.. كل ذلك يقوم على غير أساس .. إن هو إلا تخبط
يائس .. راجعى نفسك يا زهرة .. يجب أن نذهب معا .

لم تسمع كلمة مما قلت إذ واصلت كلامها قائلة :

— ماذا أفعل ؟.. لا حق لى عليك .. وغد حقير .. غر فى ألف

داهية !

وبصقت فى وجهى !

غضبت . رغم موقفى المخزى غضبت . ثم صحت بها :

— زهرة !

فبصقت في وجهي مرة أخرى . أعماني الغضب فصرخت :
— اذهبي وإلا كسرت رأسك .

انقضت عليّ ولطممتني على وجهي بقوة مذهلة . انتثرت واقفا وقد
جن جنوني . قبضت على يدها بقسوة ولكنها انتزعتها بعنف ولطممتني
للمرة الثانية . فقدت وعيى فانهلث عليها ضربا وصفعا وهي تبادلني
الضرب والصفع بقوة فاقت تصوري . وإذا بالمدام تهوّل نحونا وهي
ترطن بألف لسان . أبعدتها عني فصحت في جنون الغضب :

— أنا حر .. أتزوج بمن أشاء .. وسأزوج عليه !

وجاء منصور باهى فمضى بي إلى حجرته . لا أذكر أى حديث
تبادلنا ولكنى أذكر تهجمه عليّ بوقاحة غريبة ، وكيف اشتبكنا في
صراع جديد . جاء موقفه مفاجأة لي وأى مفاجأة . لم يجر لي في خاطر
أنه أيضا من عشاق زهرة ! . هكذا عرفت سر نفوره الغريب مني .
ولحقت بنا المدام . قررت أن تجعل مني كبش الفداء ، العجوز القوادة .
قالت إن البنسيون لم يعرف الهدوء منذ جئته ، وإننى قلبته إلى سوق
همجية للمعارك وقلة الأدب . وبصراحة وقحة قالت لي متحدية :

— ابحث لك عن مسكن آخر !

لم يعد ثمة ما يدعوني للبقاء ، ولكنى أصررت على الإقامة حتى عصر
الغد ، آخر الأسبوع الذى دفعت إيجاره مقدما ، وهو إصرار يرجع أولا
إلى العناد والكبرياء .

وغادرت البنسيون فهمت على وجهي طويلا تحت سماء ملبدة

بالغيوم متعرضا لدفقات متواصلة من الهواء البارد . وجعلت أتسلى بمشاهدة معارض الحوانيت المتألثة بهدايا السنة الجديدة وأنظر بفتور إلى بابا نويل العتيد !

وذهبت إلى بدرو لموعد سابق مع المهندس على بكير . وقد سألتني :
— هل دبرت مسألة الاستثمارات ؟
فأجبتة بالإيجاب فقال لي :
— فجر الغد ، سوف نبدأ مع فجر الغد .

قلت لنفسى وأنا ذاهب إلى الشركة فى الصباح الباكر « مضى الفجر .. وتمت اللعبة » .
كنت مضطربا ، ونهما إلى الأخبار . اتصلت بالمصنع تليفونيا طالبا على بكير فقبل لى إنه فى المرور . إذن فقد نفذ التدبير بإحكام ونجاح وها هو يزاول عمله اليومى . واجتاحنى الاضطراب فغادرت الشركة قبل الميعاد متعللا بعذر ما ولدى مرورى أمام دار الإذاعة تحت منصور باهى وفتاة حسناء يغادرانها معا . ترى من تكون ؟ .. خطيبة ؟ .. عشيقة ؟ . هل تجد زهرة نفسها على الرف مرة أخرى ؟ . تذكرت زهرة بحزن . لم أبرأ تماما من حبها ، وهو العاطفة الصادقة الوحيدة التى خفق بها قلبى الممزق بالأهواء .

ومضيت لزيارة علية محمد وأسرتها فاستقبلت استقبالا فاترا ، بل متجهما . هممت بطرح بعض الأكاذيب كالعادة ولكن والدها قال لى

بغضب :

— تصور موقفنا وتلك الخادمة تناقشنا الحساب !
ولما جاء ميعاد الغداء لم أَدع له . غادرت الشقة بلا أمل في وصل ما
انقطع من الأسباب . والحق أنى لم أكثرث لذلك كثيرا . لم يعد يفصل
بينى وبين الثراء إلا ساعات ، وسوف أجد الزوجة الفاخرة المناسبة .
تناولت الغداء عند بنايوتى (محمود أبو العباس) ثم ذهبت إلى
مسكن على بكير ولكنى لم أجده . مضيت إلى البنسيون والنهم إلى
الأخبار يحرقنى حرقا . أعددت حقيبتى وحملتها إلى المدخل . وتلفنت
إلى على بكير وكم غمرنى الارتياح الساحر وصوته يرد على قائلا :
« آلو » .

— سرحان يقدم تحياته .. كيف الحال ؟
— كل شىء طيب .. لم أقابل السواق بعد !
— متى نعرف النتيجة النهائية ؟
— قابلنى مساء اليوم الساعة الثامنة بـكازينو البجعة !
فقلت باستجابة متلهفة :
— طيب .. الساعة الثامنة مساء .. سأنتظرك فى كازينو البجعة ..
— إلى اللقاء .
— إلى اللقاء .

غادرت بنسيون مرامار إلى بنسيون إيفا . تسكعت بين المقاهى
أشرب كأسا هنا وكأسا هناك ، مبذرا نقودى بلا حساب . بالشراب

— ٢٦٤ —

أسكت وساوس القلق وأنات الحب المحتضر . ووعدت أهلى بخير لم
يحملوا به منذ وفاة أبى . وذهبت إلى كازينو البجعة قبل الموعد بقليل .
التقيت عند المدخل بطلبة مرزوق فضايقنى جدا ولكنى صافحته
متظاهرا بالارتياح . وقد سألتنى :

— ماذا جاء بك إلى هنا ؟

— موعد هام ..

— دعنى أرد إليك تحية من تحياتك فلنجلس معا حتى يجىء
صاحبك .

جلسنا فى البهو الشتوى وهو يسألتنى بصوته الأجوف من انتفاخ
شديقه :

— كونيـاك ؟

كنت ثملا ولكن كانت لى رغبة فى المزيد . شربنا وتحادثنا
وضحكنا . وإذا به يسألتنى :

— ترى هل يسمح لى بالسفر إلى الكويت لزيارة كريمتى ؟

— أعتقد ذلك ، أتريد أن تبدأ من جديد ؟

— كلا ولكن زوج كريمتى — هو ابن أخى أيضا — قد أثرى ثراء
كبيرا .

— لعلك تفكر فى الهجرة ؟

لاحت فى عينيه نظرة حذرة ثم قال :

— كلا .. أريد فقط أن أرى ابنتى .

— ٢٦٥ —

قربت رأسي منه وأنا أقول :

— هل أدلك على عزاء حقيقي ؟

— ما هو ؟.

— البعض يضيقون بالثورة ، ولكن أى نظام يمكن أن يحل محلها ؟ ،

فكر قليلا أو كثيرا فلن تجده خارجا عن واحد من اثنين ، فإما الشيوعية وإما الإخوان ، فأيهما تفضل على الثورة ؟!

قال بعجلة :

— لا هذا ولا ذاك !

فقلت وأنا أبتسم في ثقة وانتصار :

— هذا هو يقيني ، فليكن لك في ذلك عزاء .

وأزف الميعاد ولم يجيء على بكير. انتظرت نصف ساعة أخرى مرت في عذاب أليم. قمت إلى التليفون وطلبت مسكنه فلم يرد أحد. لعله في طريقه إلى هنا ولكن ماذا أخره؟ ألا يقدر ما يفعله التأخير بي؟. ونظر طلبة مرزوق في ساعته ثم قال «آن لى أن أذهب» ثم صافحنى وذهب. ولم أكف عن الشراب. وأخيرا جاء الجرسون ليخبرنى بأن شخصا يطلبنى في التليفون. وثبت واقفا ثم هرعت إلى التليفون. تناولت السماعة وقلبي يضرب بشدة:

— آلو .. على ؟.. لم لم تجيء ؟

— سرحان .. أصغ إلى .. انكشف الأمر !

تفاعلت كلماته مع وش الكحول في أذنى وانداحت جميعا في دوران

شمل السماء والأرض :

— ٢٦٦ —

— ماذا قلت ؟

— قضى علينا !

— ولكن كيف ؟ .. قل ما عندك دفعة واحدة !

— ما الفائدة ؟ .. أراد السواق أن يفوز بالغنيمة وحده فوقع في شر

عمله .. سيعترف بكل شيء .. إن لم يكن قد اعترف بالفعل ..

سألت بريق جاف :

— والعمل ؟ .. ماذا أنت صانع ؟

— قضى علينا .. سأفعل ما يمليه على الشيطان .

وأغلق السكة .

إني أرتجف ولا تكاد تحملني قدماى. فكرت لحظة في الهرب ولكنى عدت — تحت عيني الجرسون — إلى المائدة. لم أجلس. شربت الكأس. أديت الحساب. اليأس يزحف بسرعة مذهلة. وخوف مثل الشيطان. فارقت موقفى إلى البار رأسا. بطريقة غير شعورية. طلبت من البارمان زجاجة واندفعت في الشرب بلا وعى وهو يرمقنى بقلق. أصب وأشرب ثم أصب. دون كلمة أو لفظة أو تريث. ثم رفعت رأسى إليه قائلا:

— موسى حلاقة من فضلك ؟

تردد قليلا، ولما قرأ الإصرار فى وجهى نادى الجرسون وسأله عن موسى. رجع الجرسون بموسى مستعملة عارية فتقبلتها شاكرا ثم أودعتها جيبي. انفضلت عن البار بشيء من المشقة ثم مضيت نحو الباب الخارجى. مترنحا.. يائسا.. متعجلا. عبرت الطريق وبودى لو أركض ركضا.

كنت يائسا .. يائسا .. يائسا ..

مارشال



٥

عامر وهدى

تنغص على صفوى بالأحداث التى ألت بالبنسيون . لقد ركنت إليه
لأنعم بشيء من الهدوء الضرورى لشيخوختى . وبشيء من عزاء
الذكريات عن الخيبة المريرة التى منيت بها فى ختام حياتى العملية . لم يجر
لى فى الظن أنه سينقلب ميدانا لمعارك وحشية قدر لها أن تنتهى بجريمة قتل
دامية .

ودب فى بعض نشاط فغادرت حجرتى منضما إلى ماريانا وطلبة
مرزوق بمجلسنا المعهود بالمدخل . وددت أن أرى زهرة ولكن
اضطراب ماريانا وتهجم طلبة منعانى من استدعائها إلى جو سيضيق حتما
بأحزانها ولن يوليها الاحترام اللائق . وعلمت أن حسنى علام غادر
البنسيون فى ميعاده المألوف تقريبا . إنه انفعلى ساعة بالخبر الدامى ثم
مضى إلى حال سبيله ، أما منصور باهى فقد تأخر به النوم على خلاف
عادته . وقالت ماريانا بتأفف ..

— ها هو اليوم الأخير من السنة ، ختمها أسوأ ختام ، فماذا نجبى لنا

العام الجديد ١٩

فتساءل طلبة مرزوق فى ضجر عصبى :

— ٢٧٠ —

— أى متاعب ستلاحقنا هنا !

فتمتعت بصوت واهن :

— ما دمنا أبرياء ..

فقاطعنى بجدة :

— أنت متحصن بشيخوختك فلن يضيرك شيء ..

وترامى إلينا صوت باب منصور وهو يفتح . ذهب إلى الحمام .

رجع إلى حجرته بعد نصف ساعة .

وما لبث أن ظهر من وراء البارفان ، مرتديا بدلتة ومعطفه ، ولكنه طالعنا بوجه شديد الشحوب ونظرة معتمة وقسمات متصلبة . أخبرته المدام بأن إفطاره معد ولكنه رفضه بهزة من رأسه دون أن ينبس . أقلقنا منظره بلا شك ، وكانت المدام أسرعنا في الإفصاح عن ذاك القلق فقالت له :

— اجلس يا مسيو منصور .. أأنت على ما يرام ؟

قال دون أن يجلس :

— على خير ما يرام ، لقد نمت أكثر من المعتاد ، هذا كل ما هنالك !

فقالت وهى تشير إلى الجريدة المطروحة على الكنية :

— أما سمعت الخبر ؟

لم يبد أى اهتمام بشيء فقالت :

— سرحان البحيرى .. وجد قتيلا فى طريق البالما ..

نظر إليها طويلا . لم يدهش ، لم ينزعج ، ولكنه ظل ينظر فى عينيها .

— ٢٧١ —

كأنما لم يسمع قولها ، أو لم يفهمه ، أو أنه يعاني مرضا أخطر مما
نتصور . ودعته ماريانا إلى قراءة الخبر في الجريدة فألقى عليه نظرة
متمهلة هادئة ، وأبصارنا مركزة عليه ، ثم رفع رأسه وهو يقول :

— أجل .. وجد قتيلا ..

قلت له باشفاق :

— إنك متعب فلتجلس ..

فقال ببرود أو لعله ذهول :

— إني بخير ..

فقالت ماريانا :

— نحن كما ترى في غاية من الاضطراب ..

نقل بصره بين وجوهنا ثم سأل :

— لم ؟

— نتوقع أن يجيء البوليس فيقلق راحتنا ..

— لن يجيء ..

فقال طلبية مرزوق :

— ولكن البوليس كما تعلم ..

فقاطعه قائلا بهدوء :

— أنا قاتل سرحان البحيري !..

ومضى نحو الباب قبل أن نفقه قوله ففتحه ثم نظر إلينا قائلا :

— سأذهب إلى البوليس بنفسى ..

— ٢٧٢ —

وأغلق الباب وراءه .. تبادلنا نظرات ذاهلة ، مضى وقت ونحن
نترامق فى ذهول وصمت . ثم هتفت ماريانا بخوف :
— إنه مجنون !

فقلت :

— بل إنه مريض ..

تفكر طلبة مليا ثم قال :

— ولعله هو القاتل !

فصاحت ماريانا :

— ذلك الشاب المهذب الخجول !

وقلت بإشفاق :

— إنه مريض بلا شك .

وتساءلت ماريانا :

— ولم يقتله ؟

فتساءل طلبة بدوره :

— ولم يعترف بأنه القاتل ؟

قالت ماريانا :

— لن أنسى صورة وجهه ، لقد مس عقله شيء ..

فقال طلبة مؤيدا رأيه :

— لقد كان آخر المتشاجرين معه ..

فقلت معترضا :

— ٢٧٣ —

— ما من أحد إلا وتشاجر معه ..

فأشار ناحية حجرة زهرة وقال :

— هناك يستقر السبب ..

فقلت محتدا :

— ولكنه الوحيد الذى لم يبد نحوها أى اهتمام خاص .

— لا يعنى ذاك أنه لم يحبها ، أو أنه لم يرغب فى الانتقام من غريمه

فيها ..

— يا سيدى لقد تركها سرحان وذهب ..

— ولكنه أخذ قلبها ، كما أخذ شرفها !

— صه .. لا تفترى على الناس بغير يقين ..

وتساءلت ما زيانا :

— ترى هل يذهب حقا إلى البوليس ؟

وتواصل الحديث محموما حتى أرهقنا ، وعند ذاك هتفت :

— فلتكف .. كفاية .. ولنسلم إلى المقادر ..

﴿ ... أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه

سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم

يجعل الله له نورا فما له من نور * ألم تر أن الله يسبح له من فى السماوات

والأرض والطير ضافات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما

يفعلون * والله ملك السماوات والأرض وإلى الله المصير ﴾

— ٢٧٤ —

سرعان ما تعبت عيناى من القراءة . غادرت الحجرة إلى المدخل
والساعة تدق الرابعة مساء . وجدت ماريانا غارقة فى الكتابة فراحت
تقول لى :

— أول ليلة رأس السنة تمر بى وكأنها ليلة مأتم .

فقال طلبة مرزوق بحزم :

— إياكم والعودة إلى حديث الهم والكدر .

فقال المدام بغضب :

— لقد سقط النحس على البنسيون ، إنى واثقة من ذلك ، وعلى

زهرة أن تذهب ، فلتبحث عن رزقها فى مكان آخر .

أصابت غضبتها قلبى فقلت بإشفاق :

— إنها بريئة يا ماريانا ، سيئة الحظ ، وقد لجأت إليك فى محنتها .

— أصبحت أتشاءم منها .

فرقع طلبة بأصابعه كأنما قد تلقى فكرة جديدة سعيدة وقال :

— ماذا يمنعنا من الاحتفال بليلة رأس السنة ؟

فقلت بدهشة :

— ماذا يمنعنا !.. يا له من قول مضحك .

تجاهلنى .. وقال للماريانا :

— استعدى يا عزيزتى .. سنسهر معا كما اتفقنا !

تشكت المرأة قائلة :

— أعصابى .. أعصابى يا مسيو طلبة .

— لذلك أدعوك للسهر .

تغير الجو . بالقياس إليهما على الأقل . وراحا يناقشان الاقتراح
بجدية . وجاء آنذاك حسنى علام من الخارج فأعلن على عزمه على
الانتقال من البنسيون إلى مقام جديد . وقصت عليه المدام قصة منصور
باهى الغريبة فتلقاها بدهشة كبيرة وناقشها وقتا ، ثم هز كتفيه العريضين
كأنما ينفضهما عنه ، وراح يعد حقييته ، ثم ودعنا وانصرف .

وتمت عقب انصرافه بحزن :

— عدنا وحدنا كما كنا ..

فقال طلبة بمرح :

— لنحمد الله على ذلك ..

انبعثت فيهما روح نشاط دفاق جرفت من قلبيهما شوائب القلق
والكآبة . ازينت ماريانا كالأيام الخالية .

ارتدت فستان سهرة كحلى اللون فأضفى على بياض بشرتها نضاعة
وبهاء ، ومعطفها أسود ذا طوق من الفرو الأصيل . وانتعلت حذاء
مذهبا . وتحلت بقرط من الماس وعقد من اللؤلؤ . ارتدت غانية جذابة
نبيلة وتوارت أمارات الكبر تحت قناع المساحيق . ترامقنا هنيهة وهى
واقفة وسط المدخل وقفة استعراضية . ثم ضحكت بفرح بنت مراةقة
ومضت هى تقول لطلبة :

— سأنتظرك عند الحلاق .

وجدت نفسى وحيدا ، لا أنيس لى إلا عواء ريح عاتية . ناديت
زهرة . ثلاث مرات ناديتها قبل أن تظهر من وراء البارفان . وقفت
تعلوها مظاهر الحزن والهزيمة والانكسار حتى خيل إلى أنها ضوئت
واحدودبت .

أشرت إلى الكنية فدلقت إليها فى صمت ثم استقرت تحت تمثال
العذراء . شبكت ذراعها على صدرها ورنّت إلى الأرض . عصر قلبى
عطف وحنان حتى امتلأت قنوات عيني بدمع غدة مضمحلة لم يعد من
الميسور لها أن تروح عن صاحبها بالبكاء . قلت :

— لماذا تبقيين وحدك كأنك بلا صديق ؟ ، أصغى إلى ، أنا رجل
عجوز جدا بل عجوز كما ترين ، وقد تعثر تيار حياتى ثلاث مرات أو
أربع ، تمنيت عند كل مرة أن أقتل نفسى ، وكنت أهتف من قلب
مكلوم « لقد انتهى كل شيء » ، وها أنت تريننى على رأس عمر مديد
لا يظفر به إلا الأقلون ، ولم يبق من عثرات اليأس إلا ذكريات غامضة
بلا طعم ولا رائحة ولا معنى كأنما كانت من تجارب شخص آخر !
استقبلت كلماتى بلا حماس وبلا فتور . قلت :

— لنترك أحزاننا لزم يبرى الحديد ويفتت الحجر ، ولكن عليك أن
تفكرى فى مستقبلك ، الحق يا زهرة أن المرأة لم تعد تريدك ..
فبادرتنى بشدة :

— لا يهمنى ذلك ..

— ماذا أعددت للمستقبل ؟



قالت وهي ترنو إلى الأرض : كالماضى تماما حتى أحقق ما أريد !

— ٢٧٨ —

قالت وهى ترنو إلى الأرض ما تزال :
— كالمضى تماما حتى أحقق ما أريد ..
تسمت فى قولها عزيمة ردت إلى الروح فقلت :
— حسن أن تواصلى بتعليمك وأن تتدرى على مهنة ، ولكن كيف
توفرين لنفسك الأمن والرزق ؟
قالت بثقة وتحد :
— فى كل خطوة أجد من يعرض على عملا ..
قلت برقة أستعين بها على إقناعها :
— والقرية .. ألا تفكرين فى العودة إليها ؟
— كلا .. إنهم يسيئون بى الظن .
فقلت فيما يشبه التوسل :
— ومحمود أبو العباس ؟.. له عيوبه بلا شك ولكنك قوية
وستستطيعين أن تقوميه وأن تدفعيه إلى ما هو خير .
— ليس دونهم سوء ظن بى ..
تهدت فى تسليم أسيف وقلت :
— أود أن أطمئن عليك يا زهرة ، إني أحبك . هو حب متبادل فيما
أعتقد . وباسمه سأرجوك أن تقصدينى عند الشدة ..
رمقتنى بامتنان وحب فقلت :
— مهما يكن من مرارة التجربة الماضية فلن تغير مرارتها من طبيعة
الأشياء ، ستظل غايتك المنشودة هى العثور على ابن الحلال !

— ٢٧٩ —

أحنت رأسها وهى تنهد ..

— وستجدين حتما ابن الحلال الجدير بك .. إنه موجود الآن في مكان ما ولعله يتحين اللحظة المناسبة !
غمغمت بكلام لم أتبينه ولكن حدثنى قلبى بأنه كلام طيب ،
فقلت :

— ما تزال الدنيا بخير ، وستكون كذلك إلى الأبد !
لبثنا جالسين نراوح بين الصمت والمناجاة . وبعد وقت غير قصير
استأذنت فى الانصراف ثم ذهبت إلى حجرتها .
مكثت وحدى طويلا حتى استيقظت — تسلل النوم إلتى وأنا
لا أدرى — على صوت الباب وهو يفتح .
دخلت ماريانا وطلبة مرزوق ثملين وهما يغنيان ، وصاح بى الرجل :
— ماذا أبقاك هنا أيها العجوز ؟
تشاءبت فى ذهول وأنا أتساءل :
— كم الساعة ؟
فأجابت ماريانا بلسان مخمور :
— مضت ساعتان من العام الجديد .
وإذا بالرجل يشدها إلى حجرته وهو يقبلها فتطاوعه بعد تمنع
لاخطورة له ، ثم أغلق الباب وراءهما . جعلت أنظر إلى الباب المغلق
وكأننى فى حلم !

* * *

— ٢٨٠ —

جمعتنا مائدة الإفطار صباحا وكنا وحدنا . لم تظهر ماريانا على حين
ذهبت زهرة بعد إعداد المائدة .

نظرت إليه فوجدته مريضا أو كالريض . قلت له مداعبا :

— صباحية مباركة !

تجاهلنى مليا ، ثم تتمم :

— يا لك من نحس !

رفعت إليه عيني مستطلعا فضحك رغما منه وقال :

— كان فشلا مزريا ومضحكا معا .

تساءلت متغايا :

— عم تتحدث ؟

— إنك تعرف تماما عما أتحدث يا ثعلب !

— ماريانا ؟ .

غلبة الضحك مرة أخرى ثم قال :

— حاولنا المستحيل ، فعلنا كل ما يمكن تخيله ، ولكن بلا فائدة ،

ولما تجردت من ملابسها تبدت كمومياء من شمع مذاب فقلت لنفسي

يا للتعاسة !

— لقد جننت !

— وإذا بالآلام الكلى تنتابها ! ، تصور ، وبكت ، واهتمتى بأننى أمثل

بها !

— ٢٨١ —

تبعنى إلى حجرى بعد الإفطار . جلس على كرسى أمامى مباشرة
وهو يقول :

— يخیل إلى أننى سأسافر إلى الكويت قريبا ، أفتانى المرحوم بذلك .
— المرحوم ؟

— سرحان البحيرى .

وضحك ضحكة قصيرة ثم قال بلا مناسبة ظاهرة على الأقل :

— أراد أن يقنعنى بالثورة بمنطق غريب .

نظرت إليه متسائلا فقال :

— أكد لى أنه لا بديل للثورة إلا واحد من اثنين .. الشيوعيين

أو الإخوان !. فظن أنه دفعنى إلى ركن مسدود ..

فقلت بإيمان :

— ولكن ذلك هو الحق !

ضحك ساخرا ثم قال :

— بل يوجد بديل ثالث !

— ما هو ؟

— أمريكا !

هتفت بغیظ :

— أمريكا تحكمنا ؟

فقال بهدوء حالم :

— عن طريق يمينيين معقولين ، لم لا ؟

ضقت بأحلامه فقلت :

— اذهب إلى الكويت قبل أن تجن !

ها هي الصحف تحمل إلينا أنباء الجريمة. إنها مترادف غريبة ومتناقضة. لقد اعترف منصور باهى بالقتل ولكنه لم يقنع أحدا بالباعث عليه. قال إنه قتل سرحان البحيرى لأنه — فى نظره — يستحق القتل. ولماذا يستحق سرحان البحيرى القتل؟. لصفات وتصرفات هي مردولة فى ذاتها ولكنها ليست بقاصرة عليه، فلم اختاره بالذات؟. بمحض الصدفة وكان من المحتمل أن يختار غيره. هكذا أجاب. منذ الذى يقتنع بذلك الكلام؟. أليكون الفتى مجنوناً؟ هل يدعى الجنون؟.

وإذا بتقرير الطبيب الشرعى يؤكد أن الوفاة نتجت عن قطع شرايين رسغ اليد اليسرى بموسى حلاقة ، وليس بضرب الحذاء كما اعترف القاتل ، وبذلك رجح أن تكون الوفاة نتيجة انتحار لا قتل .. وأخيراً اكتشفت العلاقة بين القتل وبين جريمة تهريب الغزل وبذلك تؤكد الانتحار .

وتساءلنا عن العقوبة التى يستحقها منصور باهى . أجل .. ستكون حتما عقوبة طفيفة ، وسوف يستأنف حياته ولكن بأى قلب وبأى عقل ؟. وقد قلت بحزن :

— إنه فتى رائع ولكنه يعانى داء خفيفا ، عليه أن يبرأ منه .

— ٢٨٣ —

ها هي زهرة كما رأيتهأ أول مرة لولا مسحة من الحزن . أنضجتها
الأيام الأخيرة أكثر مما أنضجتها أعوام العمر السابقة جميعا . تناولت
الفنجال من يدها وأنا أدارى انقباضى بابتسامة .

قالت بصوت طبيعى :

— سأذهب صباح الغد ..

كنت حاولت إثناء ماريانا عن رأيها ولكنها أصرت عليه بعناد . ومن
الناحية الأخرى صارحتنى زهرة بأنها لن تقبل البقاء حتى لو عدلت
المدام عن رأيها .

وعادت تقول بثقة :

— سأكون أحسن مما كنت هنا .

فقلت بحرارة :

— حمدا لله .

فافتر ثغرها عن ابتسامة حنون وهي تقول .

— ولن أنساك ما حييت أبدا ..

أشرت إليها أن تقرب وجهها منى ، ثم قبلت خديها بامتنان وأنا

أقول :

— أشكرك يا زهرة ..

ثم همست فى أذنها :

— ثقى من أن وقتك لم يضع سدى ، فإن من يعرف من لا يصلحون

له فقد عرف بطريقة سحرية الصالح المنشود ..

وكعادتي لدى جيشان الصدر هرعت إلى سورة الرحمن فرحت
 أتلو : ﴿ الرحمن * علم القرآن * خلق الإنسان * علمه البيان * الشمس
 والقمر بحسبان * والنجم والشجر يسجدان * والسماء رفعها ووضع
 الميزان * ألا تطغوا في الميزان * وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان *
 والأرض وضعها للأنعام * فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام * والحب ذو
 العصف والريحان * فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾

« تمت »

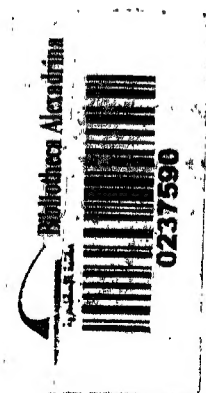
مؤلفات الأستاذ نجيب محفوظ

اسم الكتاب	تاريخ أول طبعة	تاريخ آخر طبعة
مصر القديمة	١٩٣٢	
همس الجنون	١٩٣٨	مجموعة
عبث الأقدار	١٩٣٩	رواية تاريخية
رادوبيس	١٩٤٣	رواية تاريخية
كفاح طيبة	١٩٤٤	رواية تاريخية
القاهرة الجديدة	١٩٤٥	رواية
خان الخليلي	١٩٤٦	رواية
زقاق المدق	١٩٤٧	رواية
السراب	١٩٤٨	رواية
بداية ونهاية	١٩٤٩	رواية
بين القصرين	١٩٥٦	رواية
قصر الشوق	١٩٥٧	رواية
السكينة	١٩٥٧	رواية
الللص والكلاب	١٩٦١	رواية
السमान والخريف	١٩٦٢	رواية
دنيا لله	١٩٦٢	مجموعة
الطريق	١٩٦٤	رواية
بيت سيئ السمعة	١٩٦٥	مجموعة
الشحاذ	١٩٦٥	رواية
ثرثرة فوق النيل	١٩٦٦	رواية
ميرamar	١٩٦٧	رواية
نخارة القط الأسود	١٩٦٩	مجموعة
تحت المظلة	١٩٦٩	مجموعة

اسم الكتاب	تاريخ أول طبعة	تاريخ آخر طبعة
حكاية بلا بداية ولا نهاية	١٩٧١	السابعة ١٩٨٧
شهر العسل	١٩٧١	السادسة ١٩٨٢
المرايا	١٩٧٢	الخامسة ١٩٨٠
الحب تحت المطر	١٩٧٣	الرابعة ١٩٨٠
الجريمة	١٩٧٣	الخامسة ١٩٨٤
الكرنك	١٩٧٤	السابعة ١٩٨٦
حكايات حارتنا	١٩٧٥	السادسة ١٩٨٦
قلب الليل	١٩٧٥	الثالثة ١٩٨١
حضرة المحترم	١٩٧٥	الرابعة ١٩٨٣
ملحمة الخرافيش	١٩٧٧	الرابعة ١٩٨٥
الحب فوق هضبة الهرم	١٩٧٩	الرابعة ١٩٨٧
الشیطان يعظ	١٩٧٩	الرابعة ١٩٨٧
عصر الحب	١٩٨٠	الثانية ١٩٨٧
أفراح القبة	١٩٨١	الثالثة ١٩٨٧
ليالي ألف ليلة	١٩٨٢	الثالثة ١٩٨٧
رأيت فيما يرى النائم	١٩٨٢	الثالثة ١٩٨٧
الباقى من الزمن ساعة	١٩٨٢	الثانية ١٩٨٥
أمام العرش (حوار بين الحكام)	١٩٨٣	الثانية ١٩٨٥
رحلة ابن فطومة	١٩٨٣	رواية
التنظيم السرى	١٩٨٤	مجموعة
العائش فى الحقيقة	١٩٨٥	رواية
يوم مقتل الزعيم	١٩٨٥	رواية
حديث الصباح والمساء	١٩٨٧	رواية
صباح الورد	١٩٨٧	مجموعة
تحت الطبع		
قشتمر		رواية
الفجر الكاذب		مجموعة

رقم الإيداع ٢٥٦٥
الترقيم الدولي ١ - ٢٣١ - ٣١٦ - ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - النجالة



الشمس

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه